مصر الحضارة

مصر الدور

أمين بسيوني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

الاخراج الفنى والغلاف : محمد قطب

ما هو جوهر شخصية مصر ؟
أين مكمن قوتها ؟

ما هو سرها الخاص أو بالأحرى سحرها الخاص الذى يجعل لها كل هذا التأثير فى المنطقة المحيطة بها وفى تاريخ العالم بين الحين والحين ؟

هل هو موقعهـا الفريد فى قلب العالم عنـــد ملتقى ثلاث قارات هى بدورها قلب العالم ؟

هل هى طبيعة أرضها الخضراء وسط بحر الصحراء الواسع مما حـدا بهيرودوت المؤرخ الاغريقى القديم أن يقول ان مصر هى هبة النيل ؟

هل هى حضارتها العريقة التى تمتد عبر سبعة آلاف سنة ، والتى تعتبر رصيدا معنويا هائلا يمدها بالأصالة والعراقة والقدرة على صنع المعجزات ؟

هل هى ثروتها البشرية الهائلة التى لا تقاس بالكم بقدر

ما تقاس بنوعية الانسان المصرى ذاته وقدرته اللامحدودة على العطاء ؟

ثم ··· ما هى مكامن القـوة فى هذا الرصـيد الحضارى الكبير ؟

هل هو انتماؤها الى الحضارة المصرية القديمة بكل انجازاتها التى مازالت تبهر العالم المعاصر حتى اليوم ؟

هل هو انتماؤها للعروبة التى لا تنبض الا بقلب اسمه مصر ولا تفكر الا بعقل اسمه مصر ؟

هل هو انتماؤها الى الاسلام ودورها الكبير فى خدمته وتأصيل رسالته وبلورة قيمه ومثله العليا بحيث يمكن القول دون مبالغة انه اذا كانت الجزيرة العربية هى مهبط الوحى وأرض مقدسات الاسلام فان مصر هى منارة الاسلام ومركز الاشعاع الرئيسى له ؟

ما هو سر تلك القدرة الفائقة لمصر على أن تؤثر فيمن حولها فاذا اجتاحتها غزوات أو تيارات خارجية فانها سرعان ما تمتصها وتذيبها وتجعلها تتأثر بمصر أكثر مما تؤثر هى فى مصر ؟

أسئلة كثيرة تلح على أى انسان يحاول الاقتراب من شخصية مصر بالتأمل فضلا عن الدراسة والتحليل ·

ولعل النظرة الشاملة التى ترى كل الأبعاد هى الأقدر على فهم جوهر شخصية مصر من النظرة التفصيلية التى تحاول الوقوف عند جانب دون جانب آخر ·

ولعلنا نجد مثل هذه النظرة الشاملة فى كتاب الدكتور جمال حمدان « شخصية مصر » حين يقول : (١)

---

(١) شخصية مصر : د· جمال حمدان : ص ١٢ ·

« ليس سهلا أن نركز الشخصية الاقليمية فى معادلة موجزة لا سيما اذا كانت غنية خصبة كشخصية مصر · فنحن ازاء حالة نادرة من الاقاليم والبلاد من حيث السمات والقسمات التى تجتمع فيها ·

وكثير من هذه السمات تشترك فيها مصر مع بلاد أخرى ، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل من مصر مخلوقا فريدا فهذا ···

فهى بالجغرافيا تقع فى افريقيا ، وهى بالتاريخ تنتمى الى آسيا ، وهى فى الصحراء ولكنها ليست منها ·

هى فرعونية بالجد ، ولكنها عربية بالأب ···

هى بجسمها النهرى قوة بر ، ولكنها بسواحلها قوة بحر ، تضع بذلك قدما فى الأرض وقدما فى الماء ·

وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى ، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسا أكثر من ضخم ·

وهى بموقعها بين الشرق والغرب تقع فى الأول وتواجه الثانى عبر البحر المتوسط · تمد يدا نحو الشمال وأخرى نحو الجنوب · وهى توشك بعد هذا كله أن تكون مركزا مشتركا لثلاث دوائر مختلفة بحيث صارت مجمعا لعوالم شتى ، فهى قلب العالم العربى وواسطة العالم الاسلامى ، وحجر الزاوية فى العالم الافريقى ·

واذا كان لهذا كله مغزى ، فهو ليس أنها تجمع بين الأضواء والمتناقضات وانما لأنها تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة ··· تجعلها أمة وسطا بكل معنى الكلمة » ·

هذه السطور المكثفة البالغة التركيز والدقة تجعلنا نشعر على الفور أن شخصية مصر هى نتاج تفاعل هذه العوامل جميعا

وانصهارها جميعا فى بوتقة واحدة هى التى تشكلت فى النهاية هذا المذاق الخاص لمصر وهذا الدور الفريد الذى قدر لها أن تؤديه على مر التاريخ ٠

نعم « **الدور** » ٠٠ فهذه هى الكلمة التى يمكن أن تكون المفتاح الذى يفتح لنا ذلك العالم الخصب الرحيب الذى تمثله مصر عبر العصور بما تنجزه على أرضها ، وبما تمارسه **من تأثير فى داخل** دائرتها **العربية ودائرتها الافريقية والدائرة الاسلامية** ، وفى صياغة عديد من **صفحات تاريخ العالم على امتداده** ٠

ان مصر ليست بلد الموقع الفريد أو المساحة الجغرافية الممتدة أو الامكانيات الاقتصادية الهائلة أو الكثافة السكانية الكبيرة ٠٠ ولكنها بالقطع بلد الدور الكبير الذى يؤثر فى كل من حولها على مر التاريخ ايجابا وسلبا ٠

فما من مرة رفعت فيها رأسها الا ورفعت المنطقة المحيطة بها رأسها عاليا واحتلت مكانتها المرموقة على خريطة العالم ، وما من مرة هبت فيها على مصر الزوابع وأحنت رأسها الا وأحنت المنطقة المحيطة بها رأسها وصارت نهبا لكل طامع ٠

ونتيجة لذلك فان التاريخ يؤكد أن مصر كانت وماتزال درع المنطقة المحيطة بها وسيفها ، وأنها هى التى تصدت فى ساعات الحسم لكل الموجات العاتية التى أرادت اجتياحها ٠

فى حطين عام ١١٨٧ م كسرت موجة الغزو الاستعمارى الذى تستر بالصليب ٠

وفى عين جالوت عام ١٢٦٠ م كسرت موجة الغزو التتارى

الذى هدد باجتياح العالم الاسلامى كله بل وتقويض كل ثمرات الحضارة الانسانية التى كانت معروفة حتى ذلك الحين .

وعلى أرض سيناء فى أكتوبر عام ١٩٧٣ كتبت سطور ملحمة أول انتصار للعرب فى تاريخهم الحديث وأتاحت للرأس العربية أن ترتفع من جديد وترنو الى فجر جديد انتزعتــه مصر أكتوبر من ظلام ليل طويل ..

مصر اذن هى بلد الدور .. الدور المتعدد الجوانب والبعيد التأثير ... والدور الخير المعطاء فى كل الأحوال .

وبمقدار ادراك مصر لدورها هذا بكل أبعاده وجوانبه وبمقدار حشــد قواها لممارســة هذا الدور بمقدار ما تؤكد ذاتها وتمارس وجودها الحقيقى وتحمى نفسها وكل المنطقة المحيطة بها ، وبمقدار ما تسهم اسهاما فعالا ومؤثرا فى حضارة الانسان وتقدمه .

ولا بد أن يقال بالمقابل ان القوى الخارجية جميعا شرقا وغربا تدرك أبعاد هذا الدور التاريخى لمصر وعمق تأثيره .

ولذلك فاننا لا بد أن نتوقع أن تحاول هذه القوى جميعا وان اختلفت وسائلها أن تحاصر هذا الدور وتقلصه ما استطاعت .

انه صراع طبيعى بين منطقة تريد أن تحتفظ بارادتها وحرية حركتها ، وقوى تريد السيطرة عليها ، ومصر هى حجر الزاوية فى هذا الصراع .

وسنحاول فى هــذه الصــفحات أن نقلب صفحات التاريخ لنتوقف أمام أمثلة ... مجرد أمثلة ... من هذا الدور ونحاول التعرف على ملامحه وأبعاده .

صفحة من التاريخ القديم
الدور المصرى وصنع الحضارة
« أول حضارة للانسان »

لنتوقف أولا أمام صفحة من تاريخ مصر القديم ٠

لا نفعل ذلك اتساقا مع التسلسل الزمنى والتاريخى ، وانما بحثا عن جوهر ذلك الدور المصرى الذى نحن بصدده ٠

فقد تجلى هذا الجوهر منذ بدايات التاريخ المصرى بوضوح شديد وهو : « القدرة على صنع الحضارة » ٠

بهذا الفهم نجد أنه ليس غريبا أن يقال ان الحضارة المصرية القديمة هى أقدم حضارة صنعها الانسان على وجه الأرض ٠ بل ان هذا القول فى حد ذاته دليل عملى على ذلك الجوهر الذى نود الوقوف أمامه وهو القدرة على صنع الحضارة منذ فجر التاريخ ٠

ولا يكفى هنا أن نقول كما قال هيرودوت ان مصر هى هبة النيل وأن هذا النهر العظيم هو الذى أتاح للمصريين القدماء أن

يستقروا على ضفافه ويقيموا فى واديه تلك الحضـــارة المبكرة ٠ صحيح أن الاستقرار هو حجر الأساس فى امكانية بناء أية حضارة، ولكن مصر لم تكن وحدها فى تلك الفترة المبكرة من التاريخ البلد الوحيد الذى حباه الله بالأنهار التى يمكن أن يحدث الاستقرار على ضفافها ٠٠ فهناك وديان أنهار كثيرة فى شتى بقاع العالم القديم ٠٠ ولكن الحضارة الاولى للانسان ولدت فى رحم وادى النيل ٠

وهنـاك اذن عوامل أخـــرى استثمرت هبة الطبيعة ونعمة الاستقرار وصنعت منها بنيان الحضارة ٠٠ وهى عوامل كامنة فى نفسية الانسان المصرى وطبيعته منذ فجر التاريخ ٠

✻ هل يكون منها مثلا ذلك الارتباط الشديد بين المصرى وأرضه ؟

انه ارتباط فطرى غريب كان يجعل الفلاح المصرى منذ القديم يسقى هذه الأرض بحبه وعرقه قبل أن يسقيها بماء النيل ، ويحنو عليها كما يحنو على وليده ، ويعتبرها عرضه قبل أن يعتبرها مصدر رزقه ، ويؤثر البقاء فوقها على أية مغريات مهما كانت قوية ٠٠٠ فاذا ما أملت عليه ظروف مؤقتة أن يتركها ظل مشـــدودا اليهـــا بالحنين يتلهف على العودة اليها بأسرع ما يستطيع ٠

رباط فطرى لم يتعمده الانسان المصرى وانما ركب فيه تركيبا بحيث أصبح جزءا من شخصيته ٠

✻ هل يكون من هذه العوامل أيضا روح الجماعة وذوبان الفرد فى الكل ؟

اننا لا بد أن نتوقف بكثير من التأمل أمام عبارة « الكل فى واحد » التى أشار اليها الأديب الكبير « توفيق الحكيم » فى رواية

« عودة الروح » فلعلها تكون التفسير لحركة الانسياق المصرى على ضفاف النيل منذ آلاف السنين والاطار الذى قام فى ظله بناء هذه الحضارة المبكرة ·

هناك امكانية الاستقرار على ضفاف النيل · هذا صحيح وهناك الارتباط الشديد بين المصرى وأرضه هذا صحيح ·

ولكن لو ظلت هذه الامكانيات فى اطار احساس الفرد بذاته أو فى اطار انتمائه الى دوائر صغيرة قبلية أو جغرافية لما أمكن للجماعة المصرية القديمة التى استقرت على ضفاف النيل أن تصوغ مجتمعا كبيرا واحدا يتحرك ككيان واحد ، وبالتالى يكون قادرا على صنع الحضارة ·

انها روح الجماعة ·· بل ووحدة هذه الجماعة أيضا ·

فان التاريخ المصرى القديم يتوقف بكثير من الاهتمام أمام تجربة الملك « مينا » فى توحيد القطرين (الشمال والجنوب) ويعتبرها منطلقا أساسيا لبلورة الكيان الموحد للمصريين القدماء ·

حتى عندما غزا الهكسوس شمال البلاد انطلق الجنوب بقيادة « أحمس » ليطرد الغزاة ويعيد الوحدة الى الوادى الأمين ·

هذا الاحساس الفطرى بالجماعة وبأن الكل فى واحد وبأن الوطن وحدة متكاملة لا تقبل التجزئة أو التفتت أو التشرذم هو الذى أتاح لحركة الانسان المصرى القديم أن تبنى الحضارة وتقيم ملامح أول دولة عرفها الانسان ·

✻ هل يكون من هذه العوامل أيضا ارتباط الانسان المصرى القديم بالايمان كقيمة أساسية فى حياته أو كمحور تدور حوله حياته كلها ؟

ان الانسان المصرى القديم عندما بنى وشيد كان يتعبد وعندما أقام المعابد والاهرامات كان يتعبد — حتى عندما كان يرقص اتمة كان فى الواقع يتعبد — وعندما عرف البعث بعد الموت ربط بين سعيه فى هذا العالم والحصاد الذى ينتظره فى العالم الآخر ·

وهذا هو الذى أتاح لمجموعة من القيم أن تحكم سلوكه كفرد وسلوك الجماعة كلها · والقيم هى الفيصل الحقيقى الذى يميز الحضارة عن مجرد النهضة والعمران ·· ولو أننا سنعود الى هذه النقطة بعد قليل لانها ملمح آخر من ملامح حضارة الانسان المصرى القديم ·

المهم أن الايمـــان كان وما يزال هو المحرك الرئيسى لحركة الانسان المصرى ونشاطه وهو البوصلة التى ترشد هذه الحركة باستمرار ·

والايمان هنا قيمة مطلقة لا تتوقف أمام عقيدة بعينها أو مجموعة من العقائد عرفها الانسان المصرى عبر تاريخه الطويل ·

فاذا كانت العقيدة المصرية القديمة تعرف التعدد وتعرف الرموز لآلهة مختلفة فانها عرفت أيضا التوحيد بشكل مبكر ·

وحين نزلت الأديان السماوية وجدت فى نفس الانسان المصرى التربة الخصبة المهيأة بشكل طبيعى لتلقى وحى السماء ، لانه كان منذ وجوده على هذه الأرض يتلفت بفطرته بحثا عن الحقيقة · وهدته هذه الفطرة منذ آلاف السنين الى مبادىء أساسية أكدتها رسالات السماء بعد ذلك مثل أفكار البعث والخلود والحساب بعد الموت وارتباط ما يمارسه الانسان من عمل فى الحياة الاولى بما يلقاه من جزاء فى الحياة الأخرى ·

لذلك كان طبيعيا أن تتسق هذه الفطرة السليمة للانسان المصرى مع رسالات السماء وأن يدفعه الشوق الفطرى في نفسه للايمان الى الترحيب بها والاستشهاد فى سبيلها حين يقتضى الأمر ·

عصر الشهداء فى مصر القبطية قبل الاسلام يشهد بذلك ، وتفتح قلوب المصريين للاسلام حين طرق بابهم ومسارعتهم الى الدخول فيه طواعية واختيارا ثم انخراطهم فى مواكب الجهاد فى سبيل الله شاهد آخر على ذلك ·

ولا بد أن نشير هنا الى أن ممارسة الانسان المصرى لحياته في اطار الايمان تتخذ سمات تدعو هى الأخرى للتأمل ·

فالايمان عنده جوهر وليس مجرد شكل أو شعائر يمارسها · انه قيمة راسخة فى قلبه ووجدانه حتى وان كان فلاحا أميا لم يتح له أن يتفقه بشكل كاف فى دينه ·

والايمان عنده قيمة مطلقة تأخذ أبعادا وأعماقا مختلفة .. الايمان بالله وبالوطن وبالجماعة ، وبالمثل الأعلى ، وبالعطاء يجعله ينشر الخير أينما سار على أرض وطنه أو ضرب بسعيه خارج أرض هذا الوطن ·

ولعل هذه الشحنة الايمانية هى التى تملأ نفس الانسان المصرى بالسكينة وتعطيه ما يسمى بالاستقرار النفسى ، وهى التى تمده بالقدرة الهائلة على الصبر والتحمل عند الشدائد ، وبالقدرة الهائلة أيضا على التحدى وصنع المعجزات ·

* هل يكون من هذه العوامل أيضا ومن نتاج تفاعلها مع بعضها البعض أن الحضارة التى صنعتها مصر منذ فجر التاريخ

وعبر فترات مختلفة منه بعد ذلك كانت حضارة بناء وتشييد وتعمير لا حضارة سلب ونهب وهدم وتخريب ؟

فى المقارنة بين الحضارات يفرق المؤرخون دائما بين حضارات تركت ميراثا متكاملا من القيم والمثل العليا وألوان الابداع الفكرى والأدبى والفنى ، وبين حضارات قامت على القوة العسكرية الكاسحة التى تعتمــــد على السيف تغزو به أرض الشــعوب وتسيطر عليها وتتحكم فى مقدراتها ، فاذا ما انحسرت موجات هذه القوة لم تترك شيئا يمكن أن يضيف رصيدا لحضارة الانسان بعد ذلك ٠

ويشــير المؤرخون الى الحضــارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية القديمة كمثل على النوع الأول ، ويشيرون الى الحضارة الرومانية والهكسوس والتتار كمثل على النوع الثانى ٠

النوع الأول حضارة عقلها وقلبها أكبر من عضلاتها ٠

والنوع الثانى حضارة عضلاتها أقوى من عقلها وقلبها ٠

النوع الأول حضارة تقوم على العطاء أكثر مما تقوم على الأخذ

والنوع الثانى حضارة تقوم على الأخذ أكثر مما تقوم على العطاء ٠

ولهذا فان الامبراطوريات التى كونتها هذه الحضارات اختلفت بالتالى فى أسبابها ونتائجها :

فالنوع الأول كان ينطلق من منطق الدفاع عن النفس ورد المعتدين الى أبعد منطقة يمكن أن يقبعوا خلفها عاجزين عن التفكير فى العدوان ، بينما النوع الثانى كان ينطلق من منطق شهوة القوة التى يسيل لعابها لغزو أراضى الآخرين للاستيلاء على خيراتهم ٠

هذا من حيث الأسباب ، ومن حيث النتائج كان النوع الأول من الحضارات ومنها الحضارة المصرية يترك فى كل مكان يحل به تشييدا وتعميرا وعطاء حضاريا شاملا يجعل أرجاء الامبراطورية كلها تنعم بمثل ما تنعم به عاصمتها ، وكان النوع الثانى يترك الأرض التى يغزوها جرداء قد نهبت خيراتها ولم يبق فيها الا بضع تماثيل وأبنية تمثل رموزا لعظمة القوة القاهرة التى كانت تحكم هذه المناطق بأكثر مما تمثل رغبة فى التشييد والتعمير لخير هذه الشعوب .

ولعل الفارق بين هذين النوعين من الحضارات ، الحضارات المعطاءة والحضارات الآخذة يكمن فى مجموعة القيم والمبادىء والمثل العليا التى ينطلق منها أية حضارة ، لكى تستحق تسمية حضارة . فالحضارة الحقيقية هى فى هذا الرصيد قبل أن تكون فى أى أبنية أو مشروعات أو انجازات مادية .

ويكفى الحضـــارة المصرية شرفا منـــذ بدايتها وعبر فترات التاريخ المتعاقبة بعد ذلك أنها كانت دائما تنتمى الى النوع الأول .. النوع المعطاء الذى يعتمد على عقله وقلبه أكثر مما يعتمد على عضلاته وقوته ، أو الذى كان يضع قوته وعضلاته فى خدمة عقله وقلبه .

هذه القدرة على صنع الحضارة بمفهومها الحقيقى تشكل ملمحا أساسيا من ملامح الدور الذى تقوم به مصر عبر التاريخ .

صفحة من التاريخ الوسيط

السيف والدرع

وقفنا فيما سبق أمام ملمح أساسى من ملامح الدور المصرى عبر التاريخ وهو القدرة على صنع الحضارة ، والحرص على أن تكون هذه الحضـــارة حضـــارة خيرة تســتند الى المبادىء والقيم وحضارة تشييد وتعمير لخيرها ولخير من حولها ٠

ننتقــل الآن الى ملمح آخــر من ملامح الدور المصرى عبر التاريخ ، وهو أن مصر كانت وما تزال الدرع والسيف الذى يحمى ديار العروبة والاسلام . والحائط المنيع الذى تتكسر أمامه موجات الغزو والعدوان ٠

ونستطيع ونحن نتأمل هذا الجانب من الدور المصرى بنظرة شاملة أن نتوقف أمام بعض النقاط الملفتة للنظر :

* ان قوة مصر لم تكن أبدا قوة عدوان وغزو وســيطرة واســتعلاء ، وانما كــانت قوة دفاعية بالدرجة الأولى ، تحمى ولا تهدد ، ترد العدوان ولا تعتدى ٠

* حتى بهذا المنطق فى الدفـاع عن النفس لم تقصر القوة المصرية رسالتها على مهمة الدفاع عن نفسها فحسب ، وانما كانت تعتبر نفسها مسئولة أيضا عن نجدة الآخرين فى كل ديار العروبة والاسلام • وهذا بعد أساسى من أبعاد مسئولية قوة مصر ودورها في هذا المجال •

فمصر وان كانت دولة من دول هذا العالم العربى والاسلامى المترامى الأطراف الا أنها كانت تستشعر أن لها مسئولية خاصة، مسئولية ريادية ان صح التعبير ، فى الدفاع عن كل ديار العروبة والاسلام •

وهذا انعـكاس طبيعى لاحسـاسها بالانتمـاء الى العروبة والاسلام انتماء يضعها في مكان القلب من هذا العالم الكبير •

* ان القوة المصرية لم يكن يغريها كثيرا أن تدخل طرفا فى صراع مع احدى الدول العربية أو الاسلامية أو طرفا فى أى نزاع يحدث بين شقيقين من أشـقائها • بل لعلهـا كانت تبذل قصارى الجهد لرأب الصدع بين الأشقاء لا لتوسيع هوة الخلاف بينهم ، ولتطويق النار لا لالقاء المزيد من الحطب عليها •

* ان دور مصر يبرز كمهمة مقدسـة حين يتعرض العـالم العربى أو الاسلامى كله لخطر خارجى داهم •

هنا تتطلع الأنظار بشكل تلقائى نحو مصر •

هنا تشعر مصر بدورها ومسئوليتها ، ولا تنتظر فى هذا الصدد نداء أو استغاثة من أحد وانما تبادر الى الاعداد والحشد لكى تتصدى للخطر الخارجى الداهم •

* ان القوة المصرية وهى تستعد لأداء مثل هذه المهمة المقدسة كانت تعتمد على سلاح أساسى لم يخب أبدا وهو سلاح توحيد الكلمة وجمع الصفوف حتى يتصدى الصف العربى كله أو الصف الاسلامى كله للخطر الداهم وكأنه بنيان واحد مرصوص

ولذلك يمكن أن يقال ان احساس مصر بدورها ومسئوليتها نحو أمتها العربية والاسلامية يقترن اقترانا كاملا فى وجدانها مع احساسها بأهمية تجميع هذه الأمة وتوحيد قواها ٠

وهذا شيء طبيعى لانه ينطلق من ادراك عميق وصادق بوحدة المصير ٠

وقد يتوارى هـذا الاحســاس بالمصير المشترك فى لحظات الهدوء والاســترخاء فينشــغل الجميع بقضــايا جانبية ، لكن الاحساس بوحدة المصير يعود فيقفز الى السطح ويفرض نفسه على الجميع عندما يتعرض الجميع لخطر داهم مشترك ٠

هنا تتسلم مصر الراية وتطلق النداء فاذا الكل يتجمعون فى موكب واحد للجهاد ٠

وكانت مصر ـ وما تزال ـ تعتبر أن مهمة انجـاز وحـدة الصف هى المعركة الاولى التى يجب أن تحسم قبل التقدم للمعركة الثانية وهى مواجهة الخطر المشترك ٠

* بالمقابل ، فان الاشقاء فى العالم العربى والاسلامى كانوا يؤمنون بهذه الحقيقة ويشعرون بأهمية دور مصر فى جمع الكلمة وتوحيد الصفوف ، فما أن تلوح نذر خطر خارجى داهم الا وتتجه أنظـارهم نحو مصر ، وما أن تطلق مصر صيحة التجمع والحشد الا والكل يستجيب ٠

* وبالمقابل أيضا فان الأعداء كانوا يدركون خطورة هذا التجمع لانهم يفضلون دائما أن يتعاملوا مع الدول العربية والاسلامية فرادى وليس كجبهة واحدة ٠

وكانوا يدركون أهمية دور مصر فى تحقيق هذا التجمع ٠

ولذلك كانوا يحرصون على توجيه ضربتهم نحو مصر أولا لا للخلاص من قوتها بالدرجة الأولى ، ولكن للخلاص من دورها وقدرتها على تجميع القوة العربية أو الاسلامية ٠

فاذا لم يقدر لهم أن ينجحوا فى ذلك ، فانهم يحاولون على الأقل محاصرة الدور المصرى ومنعه من احداث هذا التفاعل بين أجزاء الوطن العربى والأمة الاسلامية ٠

بل اننا نلاحظ أكثر من دلك أن الأعداء حتى وان كانوا مختلفين فى دوافعهم ومصالحهم كانوا يتحالفون ضد مصر كما فعل الصليبيون والتتار ٠

ولعل خير شاهد على ذلك ما كان يقوله زعماء أوروبا وهم يعدون لحملاتهم الصليبية على مصر ٠ كانوا يقولون فى خطبهم ان الاستيلاء على الشرق والوصول الى القدس يتطلب أولا ضرب مصر والخلاص من قوتها ودورها ٠ بل ان أحدهم وهو « أوربان » قال بصراحة : « ان رأس الحية هناك فى مصر ، واذا شئنا الخلاص من الحية فلا بد أن تقطع رأسها فى مصر » ٠

وكانت هذه النصيحة سببا فى توجه لويس التاسع بحملته نحو مصر بدلا من الاتجاه نحو الشام وفلسطين ٠

صحيح أن الله لم يمكن لويس التاسع من تحقيق هذا الحلم ، صحيح أن تشبيه الجسد العربى الاسلامى بالحية التى يوجد رأسها

في مصر تشبيه تمليه روح الحقد الا أنه يكشف عن الحقيقة التى أدركها جميع أعداء العروبة والاسلام ٠

ويمكن لنا أن نعدل من كلمات هذه العبارة بعد أن ننزع منها سموم الحقد فنقول انهـا كانت تشير الى حقيقة مؤداها أن الجسد العربى والاسلامي جسـد واحد وأن مصر تقوم فيه ساعة الخطر والتحدى مقام القلب والرأس ٠

* الملاحظة الأخيرة هى المنقذ أو البطل الذي نقع على أكتافه مسئولية تجميع الصفوف والتصدى للخطر المشترك كان غالبا من مصر ، وان ظهر فى خارجها فانه كان يحرص على الحضـور الى مصر لكى ينطلق منها ويتخذ منها قاعدة الانطلاق الطبيعية ٠ ولعل المثل الذى يحضرنا فى هذا الصدد هو البطل صلاح الدين الايوبى بطل حطين ٠

هذه الملاحظات ليست مجرد خواطر عابرة وانما هى نتـاج أية قراءة واعية يمكن أن يمارسها أى قارىء للتـاريخ العـربى والاسلامى خصوصا فى فترات التحدى الحاسمة التى هبت فيهـا الأعاصير العاتية على ديار العروبة والاسلام وهددت باجتياحها ٠

ونستطيع أن نجد أمثلة تطبيقية كثيرة على كل ذلك لو تأملنا موجتين استعماريتين من أخطر الموجات التى تعرض لها العالم العربى والاسلامى وهما :

- **الموجة الصليبية ٠**
- **موجة التتار ٠**

الموجة الصليبية :

ـ لقد ساقت الأقدار صلاح الدين الايوبى الى مصر فى رفقـة عمه شيركوه فاذا به ينطلق منها بعد سنوات قلائل ليوحد القـوة

الاسلامية فى كل من مصر والشام ، ثم ينطلق بهذه القوة الاسلامية الموحدة بعد سنوات قلائل أيضا ليكتب ملحمة حطين التى دكت أركان الاستعمار الصليبى فى الشـــام وفلسطين وآذنت بمغيب شمسه من هناك ·

ـ لقد قضى صلاح الدين صباه فى الشام الى جوار السلطان نور الدين محمود وعايشه وهو يصارع الخطر الصليبى ·

وكان يمكن لصلاح الدين أن يبقى هناك مشدودا الى قضية الجهاد يشارك فيها بقدر ما يستطيع ·

وأتيح له بعد زياراته المتكررة لمصر أن يتولى عرش مصر ·

وكان يمـكن له أن يقنع بهذا لو كان الملك غايتـه ويؤثـر السلامة مادام الخطر الصليبى بعيدا · ولكنه رأى الخطر الصليبى فى الشام ثم رآه رأى العين فى مصر واشترك بنفسه فى صـــد بعض موجاته فى بلبيس والاسكندرية ودمياط ·

وهنا تفتح وجدانه على الحقيقة ، وهى أن الخطر واحد وأنه يستهدف الجميع دون استثناء ، وأن مصر هى المنطلق الطبيعى للتصدى لهذا الخطر ·

واستقر فى وجدانه أيضا أن قضية الجهاد المقدس التى نـذر لها نفسه وحياته لا يمكن ان تمارس بشكل فردى ، وانما يجب أن تحشد لها كافة القوى لتنطلق فى موكب واحد تحت راية واحدة ·

وضاعف من يقينه هذا ما رآه من آثار السياسة القصيرة النظر التى لجأ اليها بعض الامراء والوزراء فى مصر والشام فى ذلك الحين حين دفعهم حرصهم على مصالحهم الذاتية الى التحالف مـع بعض القوى الصليبية لكى تساندهم فى صراعهم مع أشقائهم ·

ورأى رأى العين كيف دفع الجميع ثمنا باهظا لذلك ، ورأى ببصيرته ان المصير الواحد هو الذى أصبح فى مهب الريح · واتضحت أمامه على الفور خطوات التحرك فى المستقبل :

ـ اعداد جيد ومكثف لمصر باعتبارها قاعدة الانطلاق ·

ـ توحيد كافة القوى الاسلامية تحت راية واحدة وجمع سمل جميع الأمراء فى الشام الذين تتناثر عروشهم هنا وهناك فى مدن مبعثرة لا تقدر أى منها على حماية نفسها ·

ـ التقدم بعد ذلك لمنازلة الخطر الصليبى المشترك وزلزلة أركان وجوده فى الشرق كله ·

ومن يتأمل تواريخ تحرك صلاح الدين على هدى هده الخطوات يكتشف أن هدف صلاح الدين الدائم كان الجهاد المقدس وجمع الكلمة من أجل انجازه · لم يكن يفكر وهو يوطد سلطانه فى مصر أنه يقيم عرشا ليجلس عليه فى استرخاء ، لم يكن يفكر أبدا وهو يوحد جبهة الشام مع جبهة مصر أنه يطمع فى عروشهم أو اقامة امبراطورية واسعة له ·

فحين انتهز صلاح الدين فرصة استدعاء بعض أمراء الشام له للحضور الى الشام لنجدتهم وسارع الى التحرك على الفور ، كان حريصا على أن يوضح للجميع هدفه الأساسى · فقد قال لأمير دمشق حين التقى به « اعلم يا هذا أننى ما وصلت الى الشام الا لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الامور ، وسد الثغور ، وكف عادية المعتدين » ·

ولم يتعجل صلاح الدين الصدام مع الفرنجة ، ولكنه انشغل سنوات فى جمع الكلمة وحشد كافة القوى فى جبهة واحدة ·

والتواريخ تقول :

في عام ١١٦٨ م قدم صلاح الدين مع عمه شـــيركوه الى مصر ٠

في عام ١١٧١ م أصـبح صلاح حاكم مصر الذى لم يضيع وقته في اعدادها كقاعدة انطلاق ٠

في عام ١١٧٤ م استدعى صلاح الدين الى الشام لينشـغل بقضية جمع الكلمة ٠

وفي عام ١١٨٠ م دخل معظم أمراء الشام في « المحالفـــة الكبرى » التى وقع عليها أمراء الموصل والجزيرة واربل وكيفـا وماردين وقونيا وأرمينيا ٠

وتوالت سنوات الاعداد والحشد ينتقل فيها صلاح الدين بين مصر والشام حتى خرج من مصر عام ١١٨٢ م ليضع اللمسات الاخيرة ويحشد جيوش مصر والشام في موكب جهـاد مقدس واحد ٠

وفي عام ١١٨٧م كانت ملحمة « حطين » ٠

هذا الترتيب الزمنى للمراحل وهـذا التتابع الطبيعى في الخطوات يؤكد ما ذهبنا اليه ٠

ولم يقدر لصلاح الدين بعد أن أتم مهمته الجليلة أن يعود مرة أخرى الى مصر ٠ فقد توفى بعد ذلك بقليل في الشام ٠

وكأنما كانت العناية الالهية وهى تهيؤه لدوره التاريخـى تدفع به الى مصر حتى يتخذ منها قاعدة للانطلاق ويقوم منها بمهمة توحيد القوى الاسلامية ثم يمضى بعـد ذلك الى أداء رسـالته التاريخية ٠

هذه هي مصر .. وهذا هو دورهــا . نعتبرها نقطــــة انطلاق ..

نعتبرها بوتقة تنصهر فيهــا القوى وتحتشد لمواجهة الخطر المشترك ..

كل هذا جائز .. المهم أنها هناك دائما عندما يكون هناك تهديد للمصير الواحد ..

موجة التتــار :

نفس ما رأينا في قصة التصدى لموجــة الغزو الصليبي نجده في قصة التصدى للموجة العاتية التي تلتها وهي موجة التتار التي هبت على الشرق كالاعصار الجارف الذى يجتاح أمامه كل شيء ويدمر كل شيء ، ويحرق الاخضر واليابس ويدوس بأقدامه كل ميراث حضارى يجده في طريقه .

نفس القصة وان اختلفت الفصول والظروف والابطال ..

نفس القصة التي تؤكد نفس المعاني ونفس الحقائق .

ولنستعرض أبرز الحوادث التي يرتبط كل منها بمعنى من هذه المعاني

ـ التمزق والخلاف والصراع الداخلي بين الممالك والامارات الاسلامية يتيح لتيار التتار الكاسح أن يجرف أمامه كل العروش الهشة التي رضى بعضها أن يتحالف مع التتار ظنا منه أنه يتقــوى بهم على شقيقه فاذا بالتتار يدوسونه قبل أن يدوسوا شقيقه الذى استعان بهم عليه .

نفس ما رأيناه من بعض أمراء مصر والشام الذين حاولوا الاستعانة بالصليبيين على بعضهم البعض ·

وهى نفس التجربة الاليمة التى أكدت للمسلمين أنه لا يمكن التصدى لهذا الخطر الجديد الا بما تم به سحق الخطر الصليبى وهو وحدة الكلمة والصف والراية ·

بعد أن اجتاح المارد التترى كل بلاد ما وراء النهر « بخارى وسمرقند وخوارزم ـ أصبح يدق باب العراق بعنف ، وأخـــذوا يستولون على المدن واحدة اثر الاخرى حتى وصلوا الى بغداد ذاتها عام ١٢٥٧ م ، وسقطت بغداد تحت سنابك خيل الغزاة · وكان لسقوطها دوى لانها كشفت للعالم الاسلامى كله عن مدى الكارثة التى تتهدده ·

ـ فى نفس الوقت الذى كان فيه التتار يستغلون الخلافات بين القوى الاسلامية ويصطنعون من بين ضعاف النفوس عمـــلاء وجواسيس لهم كانوا حريصين على أمرين :

١ ـ ضرب مصر مع أنها لم تكن فى طريقهم بعد اذ كان عليهم أن يستولوا على العراق ثم الشام ثم يصلون اليها أخيرا ·

٢ ـ التحالف مع الصليبيين كقوة استعمارية خارجية لها نفس الاطماع فى المنطقة ·

والمدهش أن التحالف التترى الصليبى كان ضـــد مصر · وسنجد بالمقابل فيما بعد أن كل القوى الاسلامية أخذت تتجه الى مصر وتتخذ منها مركزا للتجمع لمواجهة خطر التتار ·

فيما يتصل بالتحالف بين التتار والصليبيين نجد أن التتار « عندما علموا بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد وصل الى قبرص

وأنه يتخذ منها قاعدة للهجوم على مصر سارعوا الى الاتصال بـه وبعثوا اليه بسفارة تعرض عليه عقد تحالف معهم وعرض التتار مساعدتهم للويس التاسع فى انتزاع بيت المقدس مرة أخرى من يد العرب . بل ان بعض المؤرخين يرون أن اتجـاه حملة لويس التاسع الى مصر كانت بايعاز من جفطاى القائد التترى .

ومهما يكن من صحة هذا الرأى فمن المقطوع به أن هـدف التتار والصليبيين قد اتفق على ضرب مصر واضعافها باعتبارها القوة المناوئة لاطماعهم فى الشرق .

وأحسن لويس التاسع استقبال سفراء التتار وبعث معهم عند عودتهم بعض رجاله لوضع شروط الاتفاق ، ثم اتجه هو سـنة ١٢٤٩ م نحو دمياط ..

وشاء الله أن تفشل حملته وأن تنجح مصر فى صدها وأسر قائدها نفسه فى دار ابن لقمان فى المنصورة .

وكان لهذا النصر أثره الكبير فى تحديد مصير الشرق العربى فى تلك الفترة لا ضد بقايا الصليبيين فحسب ولكن ضد الهجمة التترية الشرسة التى كانت فى أوج عنفوانها » . (١)

منذ هذه اللحظة بدأ دور مصر التاريخى يظهـر على مسرح الاحداث لكى يضع خطة التصدى الحاسمة والفاصـلة ضـد التتار .

ويصور الدكتور ابراهيم العدوى هـذا الدور فى كتـابه « العرب والتتار » حين يقول :

---

(١) العرب والتتار : د. ابراهيم العدوى .

« عمدت مصر منذ جاءتها استغاثات أمراء الشام ضد هجمات التتار الى خلق جبهة عربية موحدة تتصدى لهذا العدوان الجديد الذى مزق العراق والشام وكاد يطيح بحضارة الشرق العربى وتراثه .

واستلهمت مصر تلك الفكرة من جهادها الذى فرغت منه منذ زمن يسير ضد الصليبيين حيث أدركت أن فى تضامن البلاد العربية وتوحيد صفوفها خير سبيل لصد اعتداءات الطامعين والمستعمرين على اختلاف نزعاتهم وأساليبهم » .

واذا كان أمراء الشام فى الحروب الصليبية قد استغاثوا بصلاح الدين وطلبوا اليه الحضور لنجدتهم ، فان الامر قد اختلف فى مواجهة خطر التتار اذ حضر أمراء الشام بجيوشهم الى مصر بعد أن كان تيار التتار الكاسح يجتاح مدنهم واحدة اثر الاخرى .

وهكذا أكد أمراء الشام بتحركهم هذا نحو مصر انهم لا يعتبرونها مجرد ناصر يستعينون به عند الحاجة وانما يعتبرونها قاعدة المتجمع ثم الانطلاق لمواجهة الخطر التترى .

حضر الى مصر بقواته الملك المنصور محمد صاحب حمص وأخوه الملك الأفضل فضلا عن قوات الملك الناصر صاحب الشام التى التجأت الى مصر بعد أن كان جواسيس التتار قد قبضوا على قائدهم الملك الناصر وبعثوا به الى هولاكو . وأحسن السلطان قطز سلطان مصر استقبال القوات العربية القادمة من الشام وجعل منطقة الصالحية مركز تجمع لهم ينظمون فيه صفوفهم ويعدون أنفسهم للاشتراك فى الجهاد المقدس الذى كانت مصر تتولى الحشد له بهمة وسرعة ادراكا منها لخطورة الموقف .

لقد كان قطز القائد الذى حملته الاقدار مسئولية توحيد

الجبهة الاسلامية لمواجهة خطر التتار كما حملت صلاح الدين من قبل مسئولية مواجهة خطر الصليبيين يدرك أن الاسلوب الذى كان يلجأ اليه التتار هو الهجوم الكاسح السريع على احدى المدن العربية، وحين يفرغون منها ينتقلون الى غيرها . كما كان يدرك أن المدن العربية كانت تلجأ الى أسلوب الدفاع بالتحصن فى القلاع ولا تخرج لملاقاة التتار . وكان هذا الاسلوب يؤدى الى انتصار الكثرة العددية للتتار على بسالة المدافعين داخل القلاع .

ولذلك اعتمد قطز فى استراتيجيته على عاملين :

* ملاقاة التتار بجبهة عربية اسلامية واحدة .

* المبادأة بالهجوم باعتبار أن الهجوم خير وسائل الدفاع .

واعتمد فى تنفيذ هذه الاستراتيجية على السرعة الفائقة فى الحشد والاعداد والتحرك ، لأنه لو تباطأ فسيمنح الفرصة للتتار أن يتقدموا بسرعة نحو مصر ويبادروها بالهجوم .

وبينما كانت قوات الشام تتجمع على أرض الصالحية وتنظم صفوفها كان السلطان قطز يعبىء القوات المصرية لحرب التتار .

ويشير الدكتور ابراهيم العدوى فى كتابه « العرب والتتار » الى ظاهرتين بارزتين فى هذا الحشد :

الأولى أن السلطان قطز بعث بعماله الى كافة أرجاء مصر لجمع الجنود الذين عادوا الى بلادهم بعد الانتهاء من صد حملة لويس التاسع وارسالهم سريعا الى القاهرة .

وقد تولى نفر من رجال مصر تلقين هؤلاء الجند المهمة التى انتدبوا من أجلها وتهيئة شعورهم للجهاد المقدس

الظاهرة الثانية أن شعب مصر سارع بأداء الضرائب المطلوبة منه حتى يتسنى اعداد الجيوش • بل ان كل مصرى الى جانب ذلك بادر من تلقاء نفسه بدفع دينار بضريبة الدفاع عنوانا على مساهمة المصريين جميعا مدنيين وعسكريين فى الدفاع عن أرضهم وأرض العروبة والاسلام •

ونمضى مع الدكتور ابراهيم العدوى وهو يسرد لنا فى هذا الفصل ملامح الدور المصرى فى حشد القوى لمواجهة التتار فنتوقف أمام الظواهر التالية :

١ ـ أن السلطان قطز كان واضحا فى تحديد الهدف الأسمى الذى يتجمعون من أجله وهو الجهـاد فى سبيل الله وصيانة ديار العروبة والاسلام • لا توقف أمام الشكليات أو حفـلات المجاملة أو التكريم ، ولا اضاعة لمال أو جهد أو وقت •

عندما انضم قطز بالقوات المصرية الى القـوات الشامية فى الصالحية وأصبحوا كتيبة واحدة نذرت نفسها للجهاد حرص على أن تكون المهمة نابعـة من اقتنـاع كل منهم واستعداده الكامل للاستشهاد فى سبيلها •

قال « أنا سألقى التتار بنفسى ، فمن اختار الجهاد صحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته فان الله مطلع عليـه ، وخطيئته حريم المسلمين فى عنقه » • ويعلق الدكتور ابراهيم العدوى على ذلك فيقول : « لقد ألقى قطز على المجتمعين مسئولية حماية الأمة العربية كلها والذود عن نسائها وأطفالها وبدأ كبار قادة الجند يجيبـون قطز بأقوال تكشف عن ايمانهم بواجبهم •• ثم أيد هؤلاء القادة كلامهم بالقسم حتى يكون الله شهيدا عليهم » •

٢ ـ رفع الروح المعنوية وازالة الرعب من النفوس التى كانت قد ركبها الوهم من أن التتار قوم لا ينهزمون وقوة لا تقهر وقد تجلى حرص قطز على أهمية رفع الروح المعنوية فى موقفين :

١ ــ عندما وصل انذار التتار الى قطز مليئا بعبارات التخويف والتهديد المعتادة فى كل انذاراتهم السابقة لامراء العرب والمسلمين حرص قطز على أن يكون الرد على هذا الانذار قويا وحاسما لكـى يفت فى عضد التتار من ناحية ويرفع الروح المعنوية من ناحية أخرى بين القوات العربية التى تتأهب لخوض معركة الجهاد • فأخذ موافقة قواد القوات الشامية على أن يضرب أعناق رســـل التتار فوافقوا جميعا ثم أمر بتعليق رؤوسهم فى جهات متفرقة من القاهرة حتى يعلم الناس أن ملحمة الجهاد قد بدأت وأن الجيوش العربية الموحدة لا تخشى التتار وانمـــا تمضى الى قتالهم بكل الحمـــاس والايمان •

٢ ــ أنه عندما تحرك بالقوات الموحدة نحو الشام أصدر أوامره بأن يتولى بيبرس قيادة الطليعة من جيوش الجبهة العربية ويتقدم فى الزحف ليستطلع أخبار التتار •

وكان هذا الاختيار موفقا لان بيبرس كان قد سبق له العمل فى الشام والاشتراك مع أمرائها فى التصدى للتتار وكانت لـه انتصارات معروفة •

وأعطى هذا الاختيار ثمرته ، اذ ما كاد بيبرس يصـــل الى الحدود المصرية حتى علم بوجود التتار فى غزة ، فسارع الى ملاقاتهم على الفور • وكانت هذه المفاجأة سببا فى اشاعة الارتباك بين صفوف التتار الذين اضطروا الى الانسحاب أمام الجيش العربى المهاجم وكان هذا أول انسحاب لهم فى تاريخهم العربى •

وأدى هذا الانتصار المبكر دوره فى رفع الروح المعنوية واذكاء الحماس وتوفير قاعدة فى غزة لتجمع القوات العربية الزاحفة نحو الشام •

٣ ـ عدم تشنيت جهود المسلمين للحرب فى أكثر من جبهة حتى يتجهوا بكل قوتهم نحو التتار .

فقد سار قطز من غزة عبر الساحل حتى وصل الى عكا . وفى عكا كانت تتمركز بقايا الصليبيين بعد أن فقدوا أملاكهم فى الشام عقب معركة حطين .

لم يرد أن يشتبك معهم حتى لا يشتت جهده . وفى نفس الوقت كان يخشى من أن يتركهم هكذا شوكة فى ظهره خوفا على خطوط مواصلاته وتموينه .

ولذلك ما ان رأى ترحيبهم به واستعدادهم لمساعدته ضد التتار حتى طلب منهم أن يكونوا على الحياد « لا معه ولا ضده » . فلم يرد قطز أن يسجل على نفسه أنه يتحالف مع اعداء الوطن العربى بل اراد ان يكون الدفاع عن هذا الوطن بأيدى أبنائه أنفسهم مهما تحملوا من تضحيات .

وهذا مغزى جديد آخر اضاف به قطز بعدا جديدا الى ملحمة الجهاد التى كان يخوضها باسم كل أمة العرب والاسلام ضد التتار .

٤ ـ أن ميدان معركة تحرير الشرق العربى من خطر التتار كان على أرض فلسطين فى عين جالوت ، كما كان ميدان معركة تحرير الشرق العربى من خطر الصليبيين على أرض فلسطين أيضا فى حطين .

هل هى مصادفة من مصادفات التاريخ أم سر من أسراره ودرس يتكرر أمام أعيننا حتى نستوعبه ونستفيد منه ؟ .

٥ ـ المهم أنه فى « عين جالوت » كان اللقاء الحاسم بين قوى

الشر التى هبت على الشرق كالاعصار الجامح وبين القوة العربية الاسلامية الموحدة بقيادة مصر ·

وفى هذا اللقاء الحاسم تجلت الى جانب عبقرية قطز العسكرية وبساله المقاتلين من مصر والشام معان أخرى جديرة بالتأمل ، وهى نبل الهدف وقدسيته ·

ـ عندما وقف الجيشان وجها لوجه فى عين جالوت وقف قطز يخطب فى القوات العربية المشتركة ويذكرهم بمذابح التتار ويفتح عيونهم على مسئوليتهم أمام الله والتاريخ وديار العروبة والاسلام حتى أجهش الجميع بالبكاء وأقسموا مرة أخرى على التفانى فى الجهاد ·

ـ وعندما حمى وطيس المعركة رفع قطز صوته بندائه الشهير « واسلاماه » فاهتزت القلوب وامتلأت بنفس وهج الايمان المقدس الذى حارب به المسلمون الأوائل فى بدر وتسابقوا فى ظله نحو الاستشهاد ·

وظلت صيحته تتردد حتى كتب الله النصر للفئة المؤمنة على الفئة الباغيه وهزم التتار أول هزيمة ساحقة لهم جعلت خطرهم ينحسر لا عن الشرق العربى وحده ولكن عن أوروبا وبقية العالم · لقد انكسرت موجة التتار الشريرة على صخرة اسمها وحدة الجبهة العربية الاسلامية بقيادة مصر وبفضل راية واحدة حاربوا جميعا تحتها وهى الجهاد المقدس فى سبيل الله ·

٦ ـ يبقى درس أخير ولكنه شديد الأهمية فى الكشف عن جوهر دور مصر وهى تتقدم فى لحظات الخطر لتكون درع المنطقة وسيفها · هذا الدرس هو أن مصر وهى تحشد الجهود وتوحد الصف والكلمة لا تبغى من وراء ذلك أية مطامع توسعية وانما تركز

اهتمامها كله على درء الخطر حماية للمصير العربى والاسـلامى الواحد ٠ وبعد أن يتم انجازه تعود القـوات المصرية الى قواعدها سعيدة راضية بأنها أدت مهمتها المقدسة ٠

يقول الدكتور ابراهيم العدوى فى كتابه « العرب والتتار » فى هذه النقطة :

« وبدأت بعد هذا النصر مرحلة جديدة كشفت فيها مصر عن احترامها لحقوق جيرانها ٠٠ كما ضربت أروع الامثلة على أن هدفها الذى حاربت من أجله هو حماية الوطن الاكبر ورد اعتباره دون تطلع الى مكسب مادى أو تحقيق هدف ذاتى ٠٠ ذلك أن قطز حرص على ابقاء امراء الشام على ما بيدهم من ممتلكات سـواء من كان خاضعا من قبل للتتار أو غيرهم ممن خرج معه الى الجهاد ٠

٠٠ لقد أكدت مصر من جديد للعرب أن وحـدة صفوفهم مهما كانت قلة عدد رجالها قادرة على أن تهزم أقوى الاعداء مهما بلغت كثرتهم ٠ فقد جاء هذا النصر فى عين جالوت بفضل هذه الوحدة بعد أن عجزت الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية عن مقـاومة التتار » ٠

صفحات من التاريخ الحديث
دور مصر اليـــوم

وتمضى بنا الرحلة الخاطفـة بحثـا عن ملامـح دور مصر ومسئوليتها الخاصة نحو المنطقة المحيطة بها ، لتقفز بنا الى العصر الحديث .

هنا يختلف المنهج والاسلوب .

فاذا كنا قد اعتمدنا فى الصفحتين السابقتين على أسـلوب الانتقاء والتركيز لنختار من تاريخ مصر القديم ملمحا أساسيا من ملامح الدور المصرى وهو القدرة على صنع الحضارة ، ولنختار من تاريخ مصر الوسيط ملمحا أساسيا آخر يؤكد أن مصر هى درع المنطقة وسيفها فى مواجهة التحديات الضارية التى تستهدفها ، فاننا فى هذه الصفحة من تاريخ مصر الحديث وتاريخ المنطقة على السواء نعتمد على اسلوب آخر هو اسلوب النظرة الشاملة .

النظرة التى تستوعب كافة أبعاد الدور المصرى وملامحه على كافة الجبهات .

النظرة التى تحاول أيضا استيعاب دروس الماضى وتحديات الحاضر وآمال المستقبل انطلاقا من الحقيقة التى تقول بأن الوعى بالتاريخ هو المدخل الحقيقى لفهم الحاضر ، وهو الضوء الكاشف للخطى على درب المستقبل ·

من هذه النظرة الشاملة نجد أننا أمام رصيد كبير من الحقائق نحتاج الى تأمله باستمرار حتى لاتضل خطانا أو تتوه ·

أولا : مصر والنهضة العربية الحديثة :

شاءت الظروف أن تكون مصر أسبق دول المنطقة الى الاحتكاك بالحضارة الحديثة التى كانت قد ازدهرت فى أوروبا خلال قرون العزلة الطويلة التى عاشتها مصر والمنطقة تحت الحكم العثمانى · والمفارقة التاريخية هنا مدهشة ·

أوروبا التى كانت تعيش فى ظلمات العصور الوسطى أدركت من خلال احتكاكها بالشرق أثناء الحروب الصليبية أن هناك حضارة مزدهرة فى الشرق عليها أن تعب منها قدر ما تستطيع · وهكذا انتقلت المراجع العربية والاسلامية فى شتى العلوم والفنون والآداب الى جامعات أوروبا لتكون الشرارة التى تنطلق منها النهضة الأوروبية المعاصرة ·

أما الشرق فقد بدا وكأنه بعد أن سلم مشعل الحضارة الى غيره قد استسلم لسبات عميق مع مشارف القرن السادس عشر وهو بداية سيطرة الحكم العثمانى عليه ، عزله تماما عن كل ما كان يجرى حوله فى الخارج ·

ولم تكن مصادفة من المصادفات أن يبدأ الحكم العثمانى عهده فى مصر بأن يجمع كل العلماء والصناع والحرفيين ليرسل

بهم الى الاستانة ، وانما كان ذلك مؤشرا واضحا الى طبيعة ذلك الحكم وما كان ينتظر المنطقة فى ظله ، وهو امتصاص كل مقومات التقدم بدلا من العمل على تشجيعها وتنميتها ، واعتبار المناطق التى يحكمها مجـــرد مصدر للاموال التى يجب أن تتكدس فى خزائن الاســـتانة ٠

وهكذا بدأت الهوة تتسع ٠٠ وتجلت المفارقه التاريخية :
أوروبا تتقدم ٠٠ والشرق يتأخر ٠

أوروبا تنتقل من عصر الكشوف الجغرافية الذى أتاح لها أن تـكون ثروة هائلة من خيرات المستعمرات التى اكتشفتها الى عصر البخار والآلة الذى أتاح لها أن تستغل ما جمعته من ثروة هائلة من المستعمرات فى ادارة عجلة الثورة الصناعية بقوة فتحقق الثراء المضاعف ، مرة من نزح المواد الأولية من المستعمرات ومرة أخرى من اعادة بيع المواد المصنوعة اليها وتحقق من وراء ذلك نهضـــة شاملة فى كل الميادين ٠

انه ظرف تاريخى نادر لايتكرر كثيرا ٠٠ ولايستطيع العالم النامى مثلا اليوم وهو يحارب معركة التنمية أن يطبق هذا المثـل الأوروبى لأنه لايتاح له أن تكون له تلك المستعمرات الشاسعة التى كانت لبعض الدول الأوروبيـة لا من حيث المبـدأ ولا من حيث التطبيق ٠

ولكنه حدث فى أوروبا على أى حال وأتاح لها أن تدق أبواب الشرق مرة أخرى وقد حققت نهضة شاملة فى كافة الميادين ٠

كان ذلك فى الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م ٠

وقد واجه الشعب المصرى هذه الحملة بأسلوبين متناقضين ، **الأول :** مقاومة الحملة من حيث هى حملة عسكرية بكل الشراسة

والقوة ، وقام بالثورات المتعددة المتلاحقة التى أدت مع غيرها من العوامل الأخرى الى خروج الحملة من مصر فى سنة ١٨٠١ أى بعد ثلاث سنوات فقط من وصولها ·

ثانيا : الانبهار بكل ما أتت به الحملة من مظاهر النهضة الأوروبية والترحيب بكل ما قامت به من جهد حضارى وعلمى تمثل فى كتاب وصف مصر وفى فك رموزحجر رشيد ، مع تحفظ واحد هو رفض كل مظاهر السلوك التى تتناقض مع القيم والآداب الاسلامية كشرب الخمر والرقص وغير ذلك ·

لقد أدركت مصر من هذا الاحتكاك بأوروبا من خلال الحملة الفرنسية أن هناك نهضة شاملة لاتعرف عنها شيئا وأنها يجب الا تتأخر كثيرا عن الأخذ بأسبابها حتى تفيق من ذلك السبات الطويل الذى استسلمت له قرونا عديدة ·

ونتصور أن عمق مصر الحضارى هو الذى ألهمها ذلك ·

فهى صانعة أول حضارة فى التاريخ ، وفى أرضها وفى شعبها تكمن خمائر صنع الحضارة ·· قد تختفى فى باطن التربة أحيانا بفعل العوامل الخارجية ولكن هذه الخمائر ما تلبث أن تتحرك من جديد حين تجد الفرصة لذلك ·

وقد جاءت هذه الفرصة أكثر من مرة فى تاريخ مصر الحديث:
مرة فى عهد محمد على ·

ومرة أخرى فى عهد اسماعيل ·

ومرة ثالثة فى ظل ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ·

وفى كل مرة يحدث الانطلاق ·· انطلاق أشبه بانطلاق المارد·

وفى كل مرة يحدث الذعر من هذا الانطلاق من كافة القوى الخارجية فتتجمع لمحاصرته وضربه ان استطاعت ·

ونعود فنؤكد كما أكدنا فى الصفحة السابقة من تاريخ مصر الوسيط أن القوى الخارجية وهى تتحرك لمحاصرة هذا الانطلاق وضربه لاتفعل ذلك لمجـرد أنه انطـلاق لمصر وانمـا لادراكها أن هذا الانطلاق المصرى يمثل انطلاقا للمنطقة كلهـا وتجميعا لقواها واعلاء لارادتها ·

ولكننا لابد أن نبـادر فنقول انه اذا كان الانطلاق فى المرات الثلاث التى أشرنا اليها يواجه بالحصار والضرب فانه لايفقد أبدا تيار التواصل الأساسى فيه وهو التيار الحضارى ·

فما تركته فترة محمد على وفترة اسماعيل وما ترسيه الآن مصر يوليو من ركائز للنهضـــة لم يتوقف أبدا ، ولم يتوقف اشعاعه فى المنطقة المحيطة بمصر فى أى فترة من الفترات ·

(أ) فترة محمد على :

كانت فترة محمد على هى فترة بناء مصر الحديثة التى تحاول أن تقفز قرون العزلة الطويلة لكى تلحق بركب الحضـــارة الحديثة ·

ومهما قيل عن هذه الفترة من تحفظات – وهى صحيحة – الا أن أحدا لايمكن أن ينكر أنها هى التى وضعت مصر على خريطة العصر وأتاحت لها أن تبـــدأ خطوات الانطلاق الأولى على طريق النهضة الحديثة فاذا بها بعد سنوات قلائل تصبح قوة كبرى فى المنطقة فى تلك الفترة ·

والتحفظات تتناول أسلوب محمد على فى حكم مصر واستئثاره بالسلطة ومبدأ الاحتكار الذى اعتمد عليه فى ادارة اقتصاديات البلاد والطموحات العسكرية التى أدت الى الدخول فى كثير من المغامرات ·

ولكن أسلوب محمد على فى بناء مصر الحديثة شىء آخر تماما يشهد له بالحس العميق والنظرة الاستراتيجية الشاملة والهمة التى لاتعرف الكلل فقد نظر الى النهضة بمنظور شامل يشمل الجيش والأسطول والصناعة والزراعة والتعليم ، وربط بين ذلك كله وبين الاستفادة المباشرة من النهضة الأوروبية المعاصرة سواء باستقدام الخبراء من هناك فى الفترة الأولى أو بارسال أبناء مصر فى بعثات الى أوروبا لكى يعودوا الى مصر ويتحملوا مسئوليه النهضة بعد ذلك ·

وكان محور النجاح فى انطلاق النهضة فى عصر محمد على هو ادراكه المبكر لأهمية الاعتماد على الانسان المصرى ذاته · وقد جرب بنفسه كيف أن الشعب المصرى هو الذى وضعه على قمة المسئولية رغم أنف كل القوى الأخرى من مماليك أو أتراك بل رغم أنف الباب العالى نفسه · صحيح أنه ضرب هذه الزعامات الشعبية التى حملته الى السلطة لينفرد بالسلطة ولكنه كان قد استوعب الدرس وهو أن أى انطلاق لمصر لابد أن يكون من خلال الاعتماد على أبنائها ·

– أنشأ محمد على المدارس العسكرية الحديثة كمدرسة المشاه ومدرسة الفرسان ومدرسة المدفعية ومدرسة أركان الحرب· وأرسل الكثير من أبناء مصر فى بعثات ليكونوا ضباط المستقبل ·

– وما لقيه الجيش من عناية لقيه الاسطول · فلم يكتف بشراء سفن من الخارج وانما أنشأ ترسانة كبيرة فى الاسكندرية

لصنع السفن كانت تضارع أكبر الترسانات البحرية فى العالم فى ذلك الوقت وأسس المدرسة البحرية ·

— واهتم بالتعليم العام اهتماما كبيرا ابتـداء من المدارس الابتدائية الى المدارس الثانوية (التجهيزية) الى المدارس العليا كالمهندسخانة ومدرسة الطب ومدرسـة الألسن ومدرسة الصيدلة ومدرسة الزراعة والطب البيطرى والفنون والصناعات الى آخـر هذه التخصصات التى نراها اليوم فى جامعاتنا الحديثة ·

وأنشأ فى مصر أول مطبعة حديثة هى مطبعة « بولاق » لطبع الكتب القديمة والحديثة وطبع الكتب المدرسية ·

كما طبعت فى هذه المطبعة أول صحيفة فى مصر وهى صحيفة الوقائع المصرية · ثم تعددت بعد ذلك المطابع والصحف واتسع نطاق التبادل الفكرى مع أوروبا مما أدى الى بروز نهضـة فكرية وأدبية فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ·

— واهتم محمد على بالزراعة والصناعة والتجارة ، فقام بمسح الأراضى وشق الترع وانشاء القناطر مما أدى الى مضاعفة مساحة الأرض المزروعة فى مصر ، وأدخل محاصيل زراعية جديدة كالقطن الذى أصبح فيما بعد أهم صادرات مصر ·

وأنشأ الكثير من المصانع التى تدار بالآلات ، منهـا ما كان مرتبطا بالجيش كمصانع الأسلحة والذخيرة ومنها ما كان مرتبطا بالنمو الاقتصادى ككل كمصانع الغزل والنسيج وسبك الحديد ومصانع السكر والصابون والزيوت والزجاج · واهتم بالتجارة وعمل على احياء طريق القوافل واصلاح ميناء الاسكندرية · وكان احياء الطريق القديم (طريق مصر والبحر الأحمـر) سـببا فى توجيـه الانتبـاه الى قصر الطريق بين أوروبا والشرق الأقصى

اذا ما مر بمصر . وهكذا اتفقت شركة الهند الشرقيــة البريطانية مع مصر على القيام بنقل المســافرين والبضائع والطرود عبر هذا الطريق .

وهكذا كان هذا الجهد الفائق للبناء فى كل ميدان ارســاء حقيقيا لقواعد الانطلاقة الحديثة لمصر على طريق النهضة . كان بمثابة اقامة البنية الأساسية للنهضة .

ولكن هذه الانطلاقة تعرضت للانتكاس على ضــوء انتكاس طموحات محمد على الخارجية ونجاح القوى المناوئة للدور المصرى فى ضرب محمد على واجباره على التقوقع مرة أخرى داخل حدود مصر .

نحن اذن أمام بعدين متلازمين فى عهد محمد على لايمكن فصل أحدهما عن الآخر : دوره الطموح فى المنطقة من ناحية ، والنهضة الشاملة التى بنى من خلالها مصر الحديثة من ناحية أخــرى . فاذا كانت النهضة هى السلاح الذى اعتمد عليه محمــد على فى ممارسة دوره الطموح فى المنطقة فان هذه النهضة هى التى قاست بعد ذلك نتيجة ضرب ذلك الدور الطموح وتقلصه .

واذا كنا قد توقفنا أمام ما قام به محمد على من جهود لارساء قواعد نهضة شاملة فى مصر لنؤكد أن هذه النهضة رغم انتكاسها فى أواخر عهد محمد على قد ظلت رصيدا طيبا يضاف اليه الكثير بعد ذلك ، فاننا نود التوقف أمام هذا الدور الطموح لمحمد على فى المنطقة لنؤكد على القاعدة المطردة التى أشرنا اليها من قبل وهى أن أى انطلاق للدور المصرى فى المنطقة المحيطة به يواجه دائما من القوى الخارجية بالمحاصرة والتطويق .

ولعل مدخلنا الى فهم حقيقة ماحدث يكون من خلال تأمل

هذه العبارة التى قالها أحد قادة أوروبا فى تلك الفترة وهو تسار :

« ان بين أيدينا رجلا مريضا ، وانه ليكون من سوء الطالع ألا نستعد مقدما لاحتمالات وفاته » .

يشير تسار بعبارة « الرجل المريض » الى الدولة العثمانية فى ذلك الحين التى كانت تحرص أوروبا على الابقاء عليها الى أن تتاح لها الفرصة لكى تنقض فى الوقت المناسب على أملاكها وتحصل منها على نصيب الأسد .

ومن الطبيعى فى ضوء هذا التطور أن ترى أوروبا فى انطلاق محمد على ونجاحه فى تكوين قوة كبرى فى المنطقة حجر عثرة فى طريق أحلامها فى السيطرة على المنطقة واحتلالها فيما بعد .

لقد ذهلت أوروبا وهى ترى محمد على ينطلق ابتـــداء من عام ١٨١١ فى تيار كاسح ضد الدولة العثمانية ينجح من خلاله فى تكوين امبراطورية واسعة تضم مصر والجزيرة العربية والسودان والشـــام .

ذهلت أوروبا وهى ترى القوة المصرية الفتيـــة تتوغل فى الأناضول وتهزم الجيش العثمانى هزيمـــة قاسـية فى قونية عام ١٨٣٢ م وبذلك يصبح الطريق ممهدا أمامها نحو الاستانة .

هنا تحركت مخاوف القوى الكبرى كلها وتجمعت فى خندق واحد لمقاومة هذا الخطر الجديد الذى يهدد مصالحهم جميعا .

روسيا التى كانت ترى فى هذه القوة الجديدة حائلا دون تحقيق أطماعها فى أملاك الدولة العثمانيـــة وخصوصا فى منطقة المضـــايق .

والنمسا التى كانت ترى فى نجاح هذه القوة نجاح
القومى التحررى الذى كانت تعارضه ٠

وانجلترا التى كانت تخشى على مصالحها فى الشر
مواصلاتها فيه ٠

فرنسا هى الوحيدة التى كانت ماتزال تتعاطف مع
على لاحبا فيه وانما كراهية لانجلترا ومحاولاتها للانفراد ب
والنفوذ ٠

وتأكدت هذه المخاوف عندما التقى الجيشان المصرى و
بعد ذلك بسنوات قليلة فى معركة « نزيب عام ١٨٣٩ »
لقى الجيش العثمانى هزيمة قاسية حاسمة أكدت أن اليد
الصراع قد أصبحت لمحمد على ٠

هنا تقدمت هذه الدول جميعا ـ حتى بما فيهم فرنسا
بمذكرة مشتركة الى السلطان العثمانى تطلب فيها الا ي
صلح أو اتفاق مع محمد على الا بعد موافقة هذه الدول ع

شيء غريب أن تزج هذه القوى جميعا نفسـها ف
لادخل لها به بين محمد على والسلطان العثمانى ، وأن تبد
حريصة على السلطان العثمانى ومصيره ٠ ولكن العبارة الت
اليها والتى كانت تنظر الى الدولة العثمانية كرجل مريض
المحافظة عليه وعلى ضعفه حتى يتسنى ابتلاع أملاكه بعد ذا
لنا ذلك التجمع الغريب لكل القوى الكبرى ضد محمد على

وعندما وجدت انجلترا أن فرنسا مازالت تميل الى ا
مع محمد على سارعت بعقد اتفاقية لندن عام ١٨٤٠ بينه
روسيا وبروسيا والنمسا وتركيا ٠ ومن يتأمل شروط هذه ا
يكتشف الهدف منها على الفور ٠

فقد نصت هذه الاتفاقية على أن يعرض السلطان على محمد على أن تكون له حكومة مصر وراثية وحكم عكا طول حياته فقط ، واذا لم يقبل محمد على هذه الشروط خلال عشرة أيام يحرم من عكا ، فاذا تأخر عشرة أيام أخرى فللسلطان الحق فى اتخاذ أى اجراء بعد مشاورة حلفائه • ونص الاتفاق صراحة على تعهد هذه الدول بمساعدة السلطان فى اخضاع محمد على • هكذا بوضوح وببساطة كان الحكم قد صدر وهو اخضاع محمد على واعادته الى قواعده •

وهكذا أسدل الستار على هذه الانطلاقة وتم تحجيم الدور المصرى واعادته الى داخل حدوده بحيث لاتكون له أدنى علاقة بالمنطقة المحيطة به •

(ب) عهد اسماعيل :

لايمكن مقارنة الانطلاقة التى حدثت فى عهد اسماعيل بما سبقها فى عهد محمد على أو بما تلاها بعد فترة طويلة مع قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ • ولكننا نتوقف أمامها لما تمثله من رغبة متجددة لمصر فى استئناف سيرتها على طريق النهضة كلما لاحت لها الفرصة لذلك ، ولما تمثله أيضا من تصميم القوى الاستعمارية على التصدى لأية محاولة للانطلاق واجهاضها قبل أن تؤتى ثمارها •

وفى نقاط سريعة يمكن أن نقول ان الرغبة فى الانطلاق هذه المرة قد أخذت اتجاه التفريخ • وهذا هو ما أعلنه الخديو اسماعيل صراحة من أنه يريد أن تكون مصر قطعة من أوروبا • وهذا هو الفارق الجوهرى بين ما استحدثه اسماعيل من خطوات الاصلاح التى اعتمدت على التشبه بأوروبا واستيراد أشكال حضارتها

الخارجية وبين محمد على الذى بنى أركان النهضة على أرض مصر ذاتها واعتمد على المصريين أنفسهم فى تحقيق هذه النهضة ·

كان محمد على يزرع النهضة فى أرض مصر ، بينما كان اسماعيل يستورد مظاهرها من الخارج ·· وكانت دار الأوبرا المصرية رمزا لذلك · ومع ذلك فانه لايمكن انكار أن هذا الجسر الذى حرص اسماعيل على مده بين مصر وأوربا قد أتاح لتيار النهضة المصرية الذى بدأ فى عهد محمد على أن يتواصل ويمتد وتتراكم آثاره جيلا بعد جيل ·

كما لايمكن انكار بعض الاصلاحات التى قام بها اسماعيل فى مجال الاهتمام مرة أخرى بالجيش مما أتاح له أن يتوغل فى أفرقيا ويصل الى منابع النيل وشرق أفريقيا ، فى مجال الزراعة والتعليم ·

وقد يبدو ما فعله اسماعيل متواضعا الى جانب ما أرساه محمد على من قواعد النهضة الشاملة ولكن قيمة ما فعله اسماعيل تكمن فى أنه كان محاولة لاستئناف السير على طريق النضهة بعد فترة عباس الأول التى تميزت بالانغلاق وضيق الأفق وفترة سعيد التى تميزت بالضعف والاستسلام للنفوذ الأجنبى ·

ومع ذلك ورغم تواضع هذه الانطلاقة فى عهد اسماعيل فقد كانت محاولة الاجهاض جاهزة وبكل الشراسة · لقد كان الحكم قد صدر من القوى الاستعمارية فى تلك الفترة وعلى رأسها بريطانيا فى أن مصر لابد أن تحتل ولابد أن يصفى مابقى من دورها فى السودان وقلب أفريقيا ·

فى عهد محمد على اكتفت القوى الكبرى بأن تقلص دور مصر وتحاصره ولكن تتابع الأحداث بعد ذلك كشف لهذه القوى عن أهمية

موقع مصر الاستراتيجى نبهت اليه الحملة الفرنسية وأكدت خطورته انطلاقة محمد على ومحاولته بناء قوة كبرى فى المنطقة وأضافت الى أهميته قناة السويس بعد أن تم افتتاحها فى عهد اسماعيل لتكون الشريان الحيوى بين الشرق والغرب ٠

وهكذا كان القرار قد صدر باحتلال مصر ٠٠ ولم يبق الا التنفيذ ٠٠ وتتابعت الخطوات فى نظام دقيق مرسوم لم يهتم حتى بالبحث عن الذرائع والأسباب ٠

بدأ التسلل بالامتيازات الأجنبية ، ثم تقدم خطوة أخرى باغراق مصر فى الديون من خلال تشجيع سعيد واسماعيل على الاستدانة من الخارج والانفاق ببذخ لامبرر له ، ثم استغلت الديون بعد ذلك كمصيدة لاصطياد مصر والتدخل فى شئونها الداخلية بشكل سافر وصل الى خلع اسماعيل نفسه وتنصيب توفيق بدلا منه ليكون ألعوبة سهلة فى يد النفوذ الأجنبى الطامع فى مصر والمتربص لاحتلالها ٠

ثم كان تنفيذ قرار الاحتلال فعليا بضرب الاسكندرية فى العاشر من يوليو عام ١٨٨٢ م وضرب الثورة العرابية وتصفيتها وتصفية استقلال مصر تماما معها ٠

وكما جرى احتلال مصر بمخطط مرسوم مسبق تم تصفية دور مصر فى السودان وقلب أفريقيا ٠ وكان من العسير على مصر المحتلة التى سلبها الاحتلال ارادتها أن تقاوم المخطط البريطانى لفصل السودان عن مصر ووضعه هو الآخر فى دائرة الاحتلال البريطانى ٠ كانت الخطوة الأولى فى المخطط هو الايعاز الى الحكومة المصرية بسحب قواتها من السودان عقب اندلاع الثورة المهدية ٠

ثم كانت الخطوة الثانية اعادة فتحه من جديد بنفس القوات

المصرية ولكن بقيادات بريطانية هذه المرة حتى تكون بريطانيا شريكا فى حكم السودان ٠

ثم كانت الخطوة الثالثة انتهاز فرصة مقتل سيرلى ستاك لتصفية الوجود المصرى فى السودان وانفراد بريطانيا به ٠

نفس النتيجة التى انتهت اليها انطلاقة محمد على ، ولكنها فى هذه المرة كانت أقسى وأشد ٠ فى الأولى وقف الأمر عند حد تطويق الدور المصرى خارج حدوده ٠ أما فى الثانية فان الأمر قد وصل الى حد ذبح هذا الدور واحتلال الأرض التى ينطلق منها ٠

وكان طبيعيا بعد ذلك أن يكون احتلال مصر وضرب دورها مقدمة لاجتياح الاستعمار الأوروبى لكل بلاد الوطن العربى تقريبا، وتقسيمه كأسلاب كما حدث فى الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا فى عام ١٩٠٤ م ، وكما تأكد بعد ذلك باتفاق سايكس ـ بيكو عام ١٩١٦ م . وكما استكمل بعد ذلك بزرع كيان غريب عنه يفصل مشرق الوطن العربى عن مغربه ٠

فى ظل هذه الفترة الحالكة من سيطرة الاستعمار شغل الدور المصرى تماما بالنضال من أجل الاستقلال ٠٠ وكان هتاف هذه المرحلة : الاستقلال التام أو الموت الزؤام ٠ ورافقه هتاف آخر كان يعبر فى الواقع عن اصرار الدور المصرى على الاستمرار وهو هتاف وحدة مصر والسودان ٠

كذلك شغلت الأقطار العربية فى المشرق وفى المغرب بنفس الواجب المقدس لتحرير الأرض العربية من الاستعمار ٠٠ لكن بقاء الدور المصرى مكبلا فى أغلال الاحتلال الأجنبى منع التقاء هذه المحاولات جميعا فى تيار واحد قوى يشمل المنطقة كلها ويزلزل أركان الاستعمار والنفوذ الأجنبى فيها ٠

ولذلك بمجرد أن أفاق الدور المصرى مما أصابه واسترد عافيته مع ثورة يوليو ١٩٥٢ حتى كان ذلك ايذانا بانطلاق موجة المد التحررى التى لم تحرر الوطن العربى فحسب ولكن حررت معه افريقيا أيضا ، وبلورت كيانا دوليا جديدا من الشعوب التى كانت مغلوبة على أمرها اسمه « كيان العالم النالث » ·

(جـ)الانطلاقة الكبرى بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢ :

كان قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ايذانا بأن الدور المصرى بعد طول غياب قد حطم أغلاله واستعد لاستئناف دوره فى خدمة المنطقة كلها ·

صحيح أن الأهداف الستة الأولى للثورة كانت منصبة بالدرجة الأولى على تحقيق الآمال والطموحات المصرية ، وصحيح أن الثورة حرصت على أن تصفى آخر آثار الاستعمار فى منطقة القناة بانجاز اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤ لكن ذلك كان اعدادا جيدا للأرض التى سينطاق منها الدور المصرى ليمارس مسئوليته فى خدمة المنطقة وتحقيق طموحاتها وآمالها المشتركة ·

يؤكد ذلك أن ثورة يوليو كانت تدرك من البداية الدوائر الثلاث التى ترتبط بها وتعتبر نفسها جزءا منها ·· وقد حدد كتاب فلسفة الثورة الذى صدر فى سنواتها الأولى هذه الدوائر بانها الدائرة العربية والدائرة الافريقية والدائرة الاسلامية · هذا التحديد المبكر اشارة الى أن الدور المصرى كان يدرك مسئوليته وأبعاد حركته لأداء هذه المسئولية ·

ولم يضف الى هذه الدوائر الثلاث فيما بعد الا دائرة عدم الانحياز لانها كانت نتيجة طبيعية فى التحرك فى الدوائر الثلاث

السابقة التى تقع كلها فى الدائرة الأوسع وهى دائرة عدم الانحياز أو ما عرف بعد ذلك بالعالم الثالث .

وألقت ثورة يوليو بثقلها منذ بداياتها فى الدائرة العربية .. فساندت كفاح الشعب المغربى الذى هب للمطالبة بعودة الملك محمد الخامس الى عرشه بعد أن كانت السلطات الاستعمارية قد قامت بنفيه وابعاده .

ثم ساندت ثورة التحرير الجزائرية منذ لحظاتها الاولى وظلت تساندها بكل وسائل الدعم طيلة سبع سنوات حتى كتب لها النصر وكان وقوف مصر الى جانب ثورة الجزائر سببا من الأسباب المباشرة لاشتراك فرنسا فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .

وساندت مصر كفاح الجنوب اليمنى المحتل كما كان يسمى فى تلك الفترة ضد الاستعمار الاجنبى .

أى أن مساندة مصر لحركات التحرير فى الوطن العربى امتدت من أقصى مشرق الوطن العربى فى جبال ردفان باليمن الى أقصى مغرب الوطن العربى فى جبال الاوراس بالجزائر .

ووقفت مصر بحزم ضد القواعد الاجنبية والاحلاف وكل صور النفوذ الاجنبى المباشر وغير المباشر .

كانت صيحة التحرير التى انطلقت كالتيار الكاسح فى المنطقة العربية كلها تجد منبرها الرئيسى فى مصر وتجد قاعدة الدعم والتأييد فى مصر . بل ان صمود مصر ضد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ جعل معركة السويس الهاما جديدا وقوة دافعة جديدة لكل معارك التحرير فى أفريقيا وفى العالم الثالث كله .

وبنفس القوة التى حمل بها الدور المصرى راية المد التحررى فى الوطن العربى حمل راية ايقاظ الوعى القومى العربى وبلورة

احساس الشعب العربى من المحيط الى الخليج بالقومية العربية وبالمصير العربى الواحد ٠٠ وكانت رائدة تجارب الوحدة فى الوطن العربى ٠

وكما كانت مصر رافعة لواء معركة تحرير الوطن العربى فى الخمسينات كانت رافعة لواء تحرير افريقيا فى الستينات ، فتتابع استقلال الدول الافريقية الواحدة بعد الأخرى فى ايقاع سريع مذهل ٠ ومازالت دول هذه القارة الوفية وهى تحتفل بأعياد استقلالها تذكر بالتقدير الدور المصرى الشجاع الذى وقف الى جانب كل حركات التحرير الافريقية حتى كتب لها الله النصر ٠

ثم كانت منذ اشتراكها فى مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ م احدى القوى الرئيسية التى أسهمت الى جانب الهند ويوغوسلافيا فى انشاء حركة عدم الانحياز وبلورة رسالتها كضمير للعالم وكصمام أمان من مخاطر الحرب الباردة واحتمالات الصراع النووى ٠ مد تحررى جارف شمل الوطن العربى وأفريقيا وبلدان العالم الثالث وكانت مصر رافعة لوائه قاعدة الدعم الأساسية له ٠

ولكى ندرك أهمية هذا المد التحررى فى تاريخ العالم المعاصر نتوقف أمام هذه السطور للدكتور جمال حمدان فى كتابه : « استراتيجية الاستعمار والتحرير » ٠

« انها لمفارقة من التاريخ أن ما بناه الاستعمار فى خمسة قرون هدمه التحرير فى عقدين اثنين ٠٠ فبين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٦٥ هوت رقعة الاستعمار من ٣٥٪ من مساحة العالم الى ٤٪ ٠ أى أن معدل سرعة المد التحررى يعادل عشرات أضعاف معدل الزحف الاستعمارى » ٠

ويشير الدكتور جمال حمدان فى كتابه هذا الى أن هذا المد التحررى الكاسح قد تمثل فى ثلاث موجات رئيسية :

- موجة آسيوية فى الأربعينات .
- وموجة عربية فى الخمسينات .
- وموجة أفريقية فى الستينات .

وانه لشرف كبير لمصر ولدور مصر أن ترتبط بموجتين رئيسيتين من هذه الموجات الثلاث ، وهما الموجة العربية والموجة الافريقية .

شرف كبير للدور المصرى أنه ما تذكر انطلاقة التحرير العربية وانطلاقة المد القومى العربى وتجارب الوحدة العربية الا وتذكر مصر . وما تذكر حركات استقلال دول القارة الافريقية وميلاد منظمة الوحدة الافريقية الا وتذكر مصر .

وما يذكر ميلاد حركة عدم الانحياز وبلورة رسالتها فى التحرر والتنمية وحماية العالم من مخاطر الصراع الدولى الا وتذكر مصر .

لقد بلغ الدور المصرى أعلى درجات تأثيره ووصل الى أوسع الدوائر التى يمكن أن يصل اليها ويتحرك فيها .

ولذلك كان حتما أن يضرب وبقوة تعادل قوة التأثير العالمية التى وصل اليها ، وأن يضطر الى العودة الى قواعده ليحارب دفاعا عن أرضه التى جرى احتلال جزء منها لينشغل بذلك عن أى دور آخر خارج الحدود .

وكانت الضربة فى يونيو ١٩٦٧ .

ومهما يقال عن أسباب للقصور أو التقصير من جانب مصر أو جانب العرب تكون قد اسهمت فى هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ فاننا نتصور أن غياب هذه الأسباب لم يكن ليمنع الضربة .

لقد أصبح الدور المصرى مزعجا وكان لابد من ايقافه ..

كان القرار قد صدر .. ولم يبق الا التوقيت والبحث عن الذرائع والمبررات . واذا شئنا أن نضع أسباب القصور في مكانها الصحيح فاننا نقول لعلها كانت السبب فى زيادة حجم الكارثة وحجم الهزيمة .. ولكن غيابها لم يكن ليمنع الضربة التى كانت قد تقررت وتنتهز الفرصة للانقضاض .

ومن يتأمل السنوات الحزينة التى تلت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ يدرك على الفور الهدف الحقيقى من الضربة .

لقد هبت أعاصير الاحباط واليأس على مصر والمنطقة العربية كلها وتمزقت كثير من النفوس ، وفقد الكثير ايمانه بالمبادىء والاهداف وحتى الانجازات الملموسة التى حققتها سنوات المد والانطلاق .

فقد كل شيء طعمه ، وفقدت كل كلمة معناها ودخلنا فى نيه كبير كان يمكن أن يكون الهزيمة الحقيقية التى قصدت اليها ضربة يونيو ١٩٦٧ . ولقد تصور العالم بالفعل بعد هذه الهزيمة أن مصر والأمة العربية قد تحولت الى جسد هامد فقد الروح .

لولا أن أصالة الأمة العربية – وفى بؤرتها مصر – وتاريخها النضالى الطويل الذى قهرت فيه التحديات العاتية قد أنقذها من هذه الهاوية السحيقة التى كانت تنزلق اليها بسرعة رهيبة . وجعلها تفيق وتتشبث بالامل وبالاصرار على انتزاع الفجر من براثن الليل الحالك السواد .

وطوت مصر صدرها على الآلام والجراح وأخذت تعد فى صمت وصبر ليوم تغسل فيه عار الهزيمة لا لتسترد الارض التى

جرى احتلالها فحسب ولكن لتسترد الثقة المفقودة فى النفس وفى المبادىء وفي المستقبل ٠

واستطاعت مصر أن تحول كل شحنات الالم الى شحنات للتحدى استنفر كل طاقات الانسان المصرى وكشف عن معدنه الاصيل الذى يتوهج فى مثل هذه اللحظات ٠

وكان انتصار أكتوبر العظيم فى عام ١٩٧٣ ٠

كان ملحمة أذهلت الاصدقاء قبل الاعداء وجعلت العالم كله يعيد النظر مرة أخرى الى مصر والمنطقة العربية ويشير اليها على أنها أصبحت القوة السادسة فى هذا العصر ٠

ويلاحظ هنا أن انتصار أكتوبر كان تأكيدا لكل الحقائق التى أشرنا اليها من قبل ونحن نتحدث عن الدور المصرى ٠ فقد جرى اعداد أرض الانطلاق بعناية فى مصر من خلال حرب الاستنزاف الطويلة ومن خلال الاعداد العلمى الجيد للمعركة ومن خلال تفجير شحنة الايمان الهائلة لدى الانسان المصرى فصنع من خلالها المعجزات ٠

وقد جرى تجميع قوى المنطقة العربية لتكون فى خندق واحد فى هذه المعركة باعتبارها كما كان يقول شعار هذه المرحلة « معركة قومية » ٠٠ وهكذا أتيح لقطرة البترول أن تتعانق مع قطرة الدم ، وأن تتواجد قوات عربية على أرض المعركة مهما اختلف حجمها تبعا للظروف والامكانيات ابتداء من اشتراك الجيش السورى بأكمله فى المعركة وانتهاء ببعض القوات الرمزية من بعض البلاد العربية ومرورا بدعم السلاح الذى أرسلت به بعض الدول العربية الأخرى ٠

كان ذلك كله تأكيدا لقومية المعركه ووحدة المصير ٠٠ وكان ترديدا لنفس الحشد والتجمع الذى مارسه الدور المصرى وهو يدخل معركة حطين ضد الصليبيين ومعركة عين جالوت ضد التتار ٠

وكان المأمول - وقد جربت الأمة العربية بشكل عملى فى أكتوبر ١٩٧٣ صدق الحقيقة التى أكدتها حطين وعين جالوت من قبل من أن قوتها فى وحدتها وفى تضامنها وفى وقوفها صفا واحدا أمام كل التحديات - نقول كان المأمول أن تعى الأمة العربية الدرس ولا تسمح لنفسها بأن تفرط فى هذا السلاح ولا تسمح لغيرها بأن يفقدها هذا السلاح ، وهو سلاح الوحدة والتضامن ٠

لقد انتصرت به فى معركة أكتوبر ، ويمكن بل يجب أن تنتصر به فى معارك التنمية والبناء وصياغة المستقبل العربى القوى مستفيدة فى ذلك بالامكانيات الهائلة التى لديها والتى يمكن أن تتسرب من بين أصابعها بالتدريج ٠

لكن الخلافات سرعان ما عصفت بالتجمع العربى الذى خاض معركة أكتوبر كرجل واحد وأمة عربية واحدة ، فاذا بالصراع يصبح عربيا وينشغل تماما عن مواجهة التحديات الخارجية ٠

بل ان المثير للدهشة والألم معا أنه فى حمى هذا الخلاف العربى غاب ادراك المنطقة العربية لأهمية دور مصر لها فتسابقوا الى عزله وتطويقه ومحاصرته ومحاربته ٠ وطمع بعضهم فى وراثته وكأنه شرف يتباهى به هذا أو ذاك وليس مسئولية جسيمة لحماية المصير العربى ذاته ٠

من المثير للدهشة والألم معا أن يتآمر الجسد العربى على قلبه وعقله فى مصر وكأنه يقدم على عملية انتحار ذاتى غريبة ٠

أيا كانت الخلافات والاجتهادات العربية فانها لا يمكن أ تكون مبررا لهدم البيت العربى فوق رأس ساكنيه وخرق السفين الواحدة التى يستقلها العرب جميعا ، فانها حين تغرق ستغرز بهم جميعا ٠

لو أدرك العرب حكمة التاريخ البعيد والقريب على السو وتأملوا سر انتصارهم على كافة التحديات الشرسة التى واجهتهم م قبل لأدركوا أن طوق نجاتهم الوحيد هو فى وحدتهم وتضامنهم ولجلسوا سويا لمناقشة كافة خلافاتهم واجتهاداتهم لبلورة رؤي مشتركه يرضون عنها جميعا ويحشدون لتحقيقها كافة امكانياتهم وقواهم ٠

لو توفر لديهم هذا الاقتناع ورافقه احساس بالمصلحة العربي العليا وحرص صادق على المصير العربى الواحد لتغيرت الصور تماما فى المنطقة العربية

ونستأذن فنقول ان حكمة التاريخ تقول بوضوح شديد أز مثل هذا التجمع والوحدة كانت مصر دائما فى بؤرته وكانت عامل التفاعل الرئيسى فيه ٠ هكذا يقول التاريخ ٠٠ وكانت مصر دائم مركز الاشعاع للمنطقة كلها ٠٠ هكذا يقول التاريخ والعرب يدركوز ذلك فى أعماق أعماقهم ٠

ولعل خير شاهد عليه أنه رغم كل سحب الخلاف التى تلبد سماء العلاقات المصرية العربية بين الحين والآخر نجد أن المنطقة العربية كلها بلا استثناء تفرق بين الخلاف السياسى مع مصر وبيز الاستفادة من كافة الخبرات والكفاءات المصرية فى شتى الميادين فى الأرض العربية ٠ وما زال الدور الحضارى موصولا سواء كاز يشع من مصر أو ينتقل كخبرات الى المنطقة العربية ٠

وهذا هو الجانب الثابت الذى أشرنا اليه ونحن نتحدث عن جوانب الدور المصرى وأبعاده ٠

الأزهر يواصل دوره كمنارة للاسلام ومركز إشعاع للثقافة الاسلامية والفكر الاسلامى فى الوطن العربى والعالم الاسلامى كله من خلال مبعوثى الدول الاسلامية الذين يستضيفهم فى رحابه ومن خلال آلاف العلماء الذين يوفدون الى أرجاء العالم الاسلامى المختلفة ، ومن خلال آلاف الكتب والدراسات والمراجع الاسلامية التى يصدرها والندوات التى يعقدها لعلماء المسلمين ليناقشوا أمور دينهم ودنياهم ٠

وما زالت الجامعات المصرية تفتح صدرها للدارسين من كافة أرجاء الوطن العربى وتخرج أجيالا جديدة من الشباب العربى يعودون الى بلادهم ليقودوا تيار النهضة هناك ٠

وما زال آلاف المدرسين المصريين يخرجون فى كل عام الى الأقطار العربية يحملون رسالة العلم لكل الأجيال العربية الشابة على مستوياتها التعليمية المختلفة ٠

وما زالت ألوان العمالة المصرية بكافة خبراتها وتخصصاتها ابتداء من أساتذة الجامعات الى صغار الحرفيين تذهب الى المنطقة العربية لتشارك فى معارك التنمية والبناء ٠

وما زال الاشعاع الثقافى والفكرى والأدبى والفنى يشع من قلب اسمه مصر الى كافة أرجاء المنطقة العربية ٠٠

ـ الكتاب المصرى ٠٠

ـ والفيلم السينمائى المصرى ٠٠

ـ والأعمال التليفزيونية والاذاعية المصرية ٠

ـ والأغنية المصرية .

كل هذا الزاد يتلقفه الانسان العربى باعتباره عطاء عربيا عاما وليس عطاء مصريا أنتج من أجل مصر .

والمنطقة العربية هى التى أطلقت على شوامخ الأدباء والمفكرين والفنانين المصريين هذه المسميات العربية العامة :

ـ أحمد شوقى أمير شعراء العروبة .

ـ د. طه حسين عميد الأدب العربى .

ـ توفيق الحكيم رائد الرواية العربية الحديثة .

ـ العقاد كبير الباحثين والمفكرين العرب .

ـ أم كلثوم سيدة الغناء العربى .

ـ محمد عبد الوهاب أمير الموسيقى العربية .

وغيرهم كثير وكثير فى شتى الميادين .

انه اشعاع متعدد الجوانب متعدد العطاء يمكن أن يقال عنه بكل التواضع انه يسهم فى تشكيل الفكر العربى والوجدان العربى ويوحده فى نفس الوقت .

فكما ننتمى الى تراث عربى واحد ورثناه من الماضى ، يمارس الاشعاع الثقافى والفنى المصرى الآن دورا أساسيا فى توحيد الفكر والوجدان المعاصر فى الساحة العربية ، وليس فى هذا أى غرابة على الاطلاق .

وليس فيه من قريب أو بعيد أى احساس بالمن أو المباهاة .

بل انه ينطلق من احساس صادق بالمصير الواحد والانتماء

الواحد وبالجسد العربى الواحد الذى تقوم فيه مصر بدور القلب والعقـــل ٠

انه اثبات لحقيقة لا أكثر ولا أقل ٠

فكما يفيض الينبوع بشكل طبيعى دون أن يسأل أحد لماذا يفيض يمارس الدور المصرى مسئوليته بشكل تلقائى دون أن يسأله أحد أو يسأل هو نفسه لماذا يمارسه ٠

هذه هى طبيعته ٠٠ وهذا هو دوره بالنسبة للكيان الأكبر الذى ينتمى اليه وللدوائر التى يتحرك فيها ويعتبر نفســه جــزءا لا يتجزأ منها ٠

كلمـة الختـــام :

بعد هذه السياحة الواسعة والخاطفة فى نفس الوقت بحثا عن ملامح الدور المصرى ومسئولياته ، نريد أن نضعه فى اطار دولى تحدده لنا نظريات علم الاستراتيجية ٠٠٠ فلعل هذه النظريات تجعلنا نتأمله ونتأمل المنطقة الواسعة المحيطة به بمنظور جديد ٠

ونعود فى هذا الصــدد الى كتاب الدكتــور جمال حمدان : « اســتراتيجية الاستعمار والتحرير » الذى يستعرض فيــه كافة أشكال الصراع الانسانى والنظريات الاســتراتيجية التى تحــاول تحليله واستخراج القوانين التى تحكمه ٠

نتوقف من بين هذه النظريات أمام نظرية هالفورد ماكيندر « فى الاستراتيجية الدولية » ٠

تتلخص هذه النظرية فى ايجاز شديد ـ نرجو ألا يكون مخلا ـ فى أن ماكيندر يرى أن العالم القديم يمثل كتلة واحدة ضخمة من

اليابس تتوسطها منطقة سماها بقلب الأرض ، وعلى الطرف الآخر هلال ضـــخم متصـل بدرجـة أو بأخرى يغلف الجزء الأول ويحيط به ، وأشار الى الشق الأول باعتباره قوة بر ، والى الشق الثانى باعتباره قوة بحر .

ثم قال ماكيندر انه تقع بين هذين الشطرين الكبيرين منطقة سماها بمنطقة الارتطام وسماها الدكتور جمال حمدان بالمنطقة البينية .. وهى عبارة عن هلال أصغر يقع بين قلب الأرض والهلال الخارجى الضخم .

كأننا أمام حجرين كبيرين للرحى بينهما منطقة بينية يجرى الصراع بين القوتين الكبيرتين أو بين حجرى الرحى عليها .

بعبارة أكثر وضوحا فان القوتين العظميين فى العالم أيا كانت هاتان القوتان على اختلاف مراحل التاريخ تتصارع فيما بينها حول هذه المنطقة البينية التى تقع بينهما .

ثم يقـول الدكتور جمال حمدان عن مصير هدم المنطقة البينية (وتقع فيها بالطبع منطقة الشرق الأوسط) .

« ان هذه المنطقة محصورة بين فكى كماشة أو بين شقى رحى . وقد يبدو من هذا لأول وهلة أن التبعية والعجز قدرها الجغرافى والتاريخى وأنها ضحية موقعها المتوسط .

ولكن الحقيقة أن نفس هذه الخصائص وذلك الموقع يمكن أن يكون عامـل قوة لهذه المنطقـة اذا ما جمعت قواها فى تكتلات أو قطاعات اقليمية كبيرة فحينئذ يمكن لهـا أن تلعب دورا مختلفـا تمـــاما » .

ويمضي الدكتور جمال حمدان فيقول :

« ويمكن من هذه الزاوية أن نقسم دور هذه المنطقة عبر التاريخ الى ثلاثة : اما خمود سياسى ، واما منطقة رهو سياسى ، واما خط استواء سياسى .

خط خمود حين تسقط لاحدى القوتين البرية أو البحرية .

. . . . . .

أما حين تعجز القوتان عن ابتلاع المنطقة فقد تكتفيان باقتسامها وتنازعها ... هنا تصبح المنطقة البينية منطقة شد وجذب ومد وجزر بين الطرفين .

ويبقى فى النهاية دور خط الاستواء السياسى ، وبه نقصد أن ترتفع قوة المنطقة (البينية) الى مستوى خطورة موقعها لتؤكد وجودها وتفرض نفسها على التوازن العالمى بين قوى البر والبحر ، وترغمهما معا على التزام حدودهما .

ويضرب الدكتور جمال حمدان مثلا على هذه الحالة بالدولة العربية الاسلامية يقول :

« ففى الشرق العربى قامت الدولة العربية الاسلامية فى العصور الوسطى لتضع مركز القوة العالمية فى منطقة الارتطام (المنطقة البينية) على حساب كل من القوى البرية والبحرية ، كما استطاعت أن تفسد عليهما خططهما فى التحالف ضدها » .

ثم يستدرك الدكتور جمال حمدان فى جملة شديدة التركيز والايحاء :

« ولكن كما أنها بفضل الوحدة قامت ، فبفعل التفكك والانفصال زالت وسقطت » .

نريد أن نخلص من هذا العرض السريع لنظرية ماكيندر ومن تحليل الدكتور جمال حمدان لمصير المنطقه البينية الى الحقائق التالية التى تردنا ردا مباشرا الى صلب موضوعنا عن دور مصر بالنسبة للمنطقة المحيطة بها :

أولا : منطقتنا نقع فى المنطقة البينية .

ثانيا : هذه المنطقة مستهدفة من القوى الكبرى شرقا وغربا والتى تمثل بالنسبة لها شقى رحى تحيطان بها .

ثالثا : لا نجاة لهذه المنطقة من أن تبتلع من هذه القوة أو تلك، أو من ان تتقاسمها هاتان القوتان فى حاله تعادلهما ، الا فى حالة واحدة وهى أن تتوحد هذه المنطقة وتكون لها بالتالى قوتها الذاتية التى تحميها من شقى الرحى معا .

رابعا : ان مصر قد أثبتت عبر التاريخ أنها بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط (وهى احدى المناطق البينية) بمثابة الدرع والسيف ، وأنها هى عنصر التفاعل القادر على تجميع المنطقة وتوحيدها فى مواجهة الأخطار والتحديات .

هذا هو دور مصر فى منظوره الاقليمى فى الشرق الأوسط وفى منظوره الدولى فى اطار نظريات الاستراتيجية العالمية .

وبعد ...

فان هذا الادراك الواعى لدور مصر بكل أبعاده وملامحه وبكل الدوائر التى يتحرك فيها انتماء لها وحرصا عليها وعلى المصير الواحد يجب أن يظل حقيقة بارزة لا تغيب أبدا عن الأنظار أو الوجدان .

ـ حقيقة بارزة لمصر ذاتها حتى تدرك أن جوهر وجودها وتحقيق ذاتها ومصدر قوتها الحقيقية يكمن فى هذا الدور المشع ..

هو قدرها ومسئوليتها .. وهو الذى يحدد حجمها وقيمتها فى نفس الوقت .

ـ حقيقة بارزة للدائرة العربية حتى تدرك أن الجسد العربى الواحد لا يصح اذا اعتل فيه القلب والعقل ـ وهو مصر ـ وأن الاحساس بالمصير الواحد يجب أن يدفعها نحو التجمع والتوحد ففيه قوتها الذاتية التى تعتبر سياجها الحقيقى وطوق نجاتها الوحيد .

ـ حقيقة بارزة للدائرة الاسلامية حتى تدرك أن قوتها الحقيقية لن تكون الا من خلال تعاونها فى اطار أخوة اسلامية جامعة تجعلها تعيش عصرها وتتفوق فى شتى الميادين حتى تكون خير أمة أخرجت للناس دينا ودنيا .

ـ حقيقة بارزة للدائرة الافريقية ولدائرة العالم الثالث حتى تدرك أن التعاون هو طريقها للانتصار فى معركة التنمية . فاذا كانت معارك التحرير يمكن أن تكون متفرقة فان معركة التنمية لا تحسم الا بالتعاون وحشد الطاقات .

ان حوار الشمال والجنوب لن يكون الا اذا قام قبله حوار أساسى بين الجنوب والجنوب . الاعتماد على الذات هو الطريق . واستثمار امكانيات العالم الثالث نفسه هو السلاح .

وليس مشكلة على الاطلاق أن تدرك القوى الخارجية حجم دور مصر وقوة تأثيره ..

وليس مشكلة على الاطلاق أن تحاول تطويقه ومحاصرته أو ضربه .

لكن المشكلة الحقيقية هى فى أن يتوارى ادراك الأشقاء فى الدوائر التى أشرنا اليها لأهمية هذا الدور لهم · هنا يدفعون الثمن قبل أن تدفعه مصر ·

أما مشكلة المشاكل فهى أن يتوارى ادراك أصحاب الدور أنفسهم لدورهم ·

هنا تكون الطامة الكبرى ·

امين بسيونى

يوليو ١٩٨٦

المراجــــع

١ ـ شخصية مصر :

الدكتور جمال حمدان : كتاب الهلال ٠

٢ ـ استراتيجية الاستعمار والتحرير :

الدكتور جمال حمدان : كتاب الهلال ٠

٣ ـ العــــرب والتتــــار :

الدكتور ابراهيم أحمد العدوى : المكتبة الثقافية ٠

٤ ـ تاريـــخ العــــرب :

الدكتور حسن ابراهيم حسن : مطبعة المعارف ٠

فهـــرس

صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٥١٨٣

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١١٢٨ ـ ٧